# تحقيق القول في تحول بولس

د. حمدي عبد العال

## مقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد النبي الأمي الصادق الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد . .

فحين سأل نابليون العالم الألماني «ويلاند» ترى هل المسيح شخصية لها وجود تاريخي؟ إنما كان يعبر في الواقع عن مدى الشكوك التي أثارها علماء القرن الثامن عشر من الغربيين حول تاريخ المسيحية، ثم جاء القرن التاسع عشر بكم هائل من الكتب التي ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والإنجليز، يفندون فيها أقوال المؤرخين والكتابات الدينية، ويرجحون أن عيسى عليه السلام من الشخصيات الخيالية، ويؤكدون في حماس أن تلك الأقوال الكتابية عن عيسى ودعوته ليست إلا محاكاة للأساطير التي تروى عن آلهة الوثنيين في الديانات القديمة.

وليس من المستطاع حصر ما كتبوه من نقد وما قدموه من براهين في هذا المجال، ولكنا نجتزيء بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما شكوك هؤلاء العلماء في وجود المسيح عليه السلام :

الأول : قالوا: إن عيسى عليه السلام لم يرد عنه ذكر في كتب المؤرخين والمفكرين الذين عاصروا زمن ظهوره.

الثاني : أن روايات العهد الجديد عن سيرة عيسى عليه السلام وأتباعه مشابهة للروايات والأساطير الدينية للوثنيين التي كانت شائعة قبل زمانه.

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فمنهم : «يوسفيوس، وجتس الطبرى» وهما يهوديان، وكان الأخير يعيش في الجليل زمن عيسى عليه السلام، و«تاستس»، و«سويتنيوس، الرومانيان، والفيلسوف اليهودي «فيلون السكندري»، وكلهم كتب عن عصر المسيح تفصيلا، ولكن أحدا منهم لم يشر إلى ذكر عيسى عليه السلام، نعم وردت إشارة مقتضبة إلى عيسى من ثلاثة سطور في تاريخ يوسفيوس أثبت التحقيق العلمي أنها مدسوسة عليه.

وأما الأساس الثاني : فهو التشابه العجيب بين القصص المسيحي، وبين القصص المروي عن عبادات الوثنيين وآلهتهم من المصريين والبابليين والفرس والكنعانيين وغيرهم، قالوا: إن الروايات التي ذكرت عن عيسى ورسله لا تخرج عن كونها بقية من بقايا أساطير تلك الديانات القديمة[1].

والواقع أنه ما كان لهذه الشكوك أن تثار، لولا المتشابهات التي أثارتها التعاليم والأقوال والإلحاقات التي أدخلت على الكتابات المسيحية بعد عيسى عليه السلام، والتي حوّلت عيسى من شخصية بشرية إلى شخصية إلهية، وظلت هذه الكتابات والإلحاقات والتعاليم قابلة للتعديل بالحذف والزيادة حتى سنة ٤٠٠ بعد الميلاد، وهو تاريخ أول طبعة رسمية للعهد الجديد باللغة السريانية، والمعروفة باسم «البيشيتو» وظلت قانونية العهد الجديد مجال أخذ ورد وحذف وإضافة، ولم تستقر على حالتها الراهنة إلّا بقرار مجمع (ترنت) سنة ١٥٤٦م[2]، فجاء هؤلاء العلماء ليجدوا أمامهم تراثا هشا غير متناسق، ضعيفا في إسناده التاريخي، وقابلا بذاته للشك والتفنيد.

---

(١) انظر حياة المسيح ص١١١ - ١١٦ - عباس محمود العقاد - دار الكتاب العربي طـ١ بيروت سنة ١٩٦٩.

(٢) انظر تفسير العهد الجديد - رسالة يعقوب وبطرس ص٢٣٨ - وليم باركلي - دار الثقافة المسيحية القاهرة.

ولكن حين ننظر في المسيحية من منظور تاريخي صرف وبعيون مؤرخ مسيحي، متجاوزين المنطق الديني والعقلي والأخلاقي، وملتزمين بحدود التسلسل الزمني كما تصوره الكتابات المسيحية وحدها، نجد المسيحية تبدأ بظهور شخص يدعى «يسوع الناصري» من إقليم الجليل بفلسطين، خلال حكم الإمبراطور الروماني «طيبريوس»، دعا اليهود باعتباره رسولا من الله إلى قومه من بني إسرائيل، إلى البر والتقوى، وإقامة الناموس الذى أنزله الله على موسى عليه السلام، وآمن بدعوته نفر من اليهود، وأخلصوا في حبّه، والحماس لدعوته، ولكن حادثا عنيفا أنهى حياته فجأة، غير أن عمله لم ينته بموته، بل واصل أتباعه الدعوة باسمه متخذين مسارا جديدا لها نحو العالمية، وواضعين شخصه مكان الصدارة في دين جديد، أخذ يتمدد وينمو ليصبح في القرن الرابع بعد الميلاد الدين الرسمي للعالم اليوناني والروماني، ومنفصلا عن الدين اليهودى، ومباينا للصورة الأولى التي كان عليها دين عيسى زمن النشأة في فلسطين، ويرث الامبراطورية الرومانية، ليقيم منها إمبراطورية باسم المسيح، ودينا باسم المسيحية له كنيسته الخاصة التي تبسط ظلها ونفوذها وسلطانها على رقعة من الأرض أوسع مدى من الامبراطورية التي ورثها.

وتلك النتائج تبدو من الضخامة بشكل لا يقارن به البداية الأولى المتواضعة لذلك الدين، فكان على المسيحيين أن يبرروها بأسباب خارج الأسباب الطبيعية، فيردوها إلى إرادة إلهية صممت على خلاص الجنس البشرى من خطيئة أبيهم آدم، وبما أن يسوع صاحب الدين الجديد هو الله نفسه تجسد لإنجاز إرادته، فالنتيجة الحتمية لذلك، أنه رغم ما يبدو ومن تضارب أو تناقض منطقي بين الوقائع والأحداث التاريخية في سيرته قبل موته وبعد قيامه، فإنه ـ أي يسوع ـ هو الذي وضع تنظيم دينه الجديد من خلال رسله الذين كان عليهم بإلهاماته وتوجيهاته الشخصية استكمال المباديء التي وضعها أثناء الفترة التي قضاها متجسدا بصورة بشرية.

وهكذا فإن الكنيسة التي أنشئت باسم المسيح والشعائر والطقوس والقرابين والتعاليم التي طورّت المسيحية وجعلتها ملائمة دوما لما يجد من الأحداث والظروف، كل ذلك إنما تم ويتم بإلهامات مستمرة من المسيح، يعبر بها عن إرادته الخاصة التي يُسِرّ بها إلى من يصطفيهم من القديسين والرسل، فتلك الإلهامات كانت على الدوام الملهم الوحيد لعمل الرسل والقديسين والبابوات من المسيحين، أما السبب في اتخاذه صورة البشر وتحمله الآلام وموته وقيامته فقد كان ذلك في جوهره

هو الأساس الذى وضعه لتقوم عليه العقيدة الصحيحة التي يتم بها الخلاص البشري.

ويعني هذا أن نشأة هذا الدين وتطوره وانقلاباته الداخلية وتناقضات تعاليمه وغير ذلك مما يجاوز المقاييس المعتادة في نشأة الأديان وتطورها المنطقي، كل ذلك بحسب النظرية المسيحية، إنما كان طبقا لخطة محددة وضعها سلفا منذ البداية يسوع المسيح وسار عليها التاريخ دون انحراف.

ويعني هذا أيضا طبقا لمفهوم هذه النظرية، أن المسيحية من حيث بنيانها الديني شيء قابل للامتداد والتحول الموضوعي بشكل لا يستطيع أحد التنبؤ بالحد الذى يقف عنده، ولا بالصورة النهائية التي يمكن أن يكون عليها هذا التحول.

ونحن في هذا البحث إنما نعود إلى مفصل رئيس في تاريخ المسيحية كلها، يعتبر بنظر المسيحيين جميعا نقطة التحول الرئيسة في المسيحية كدين مستقل، وعلامة رئيسة بين عهدين : عهد البساطة والمحلية، وعهد الانطلاق إلى العالمية، ويعزون هذا التحول التاريخي إلى ما يعتبرونه أعظم رسل المسيحية وأخطرهم شأنا على الإطلاق، وهو «بولس»، ذلك الرسول الذى ميّز بشكل حاسم بين صورتين للمسيح، صورة مسيح النشأة الذى كان بشرا رسولا يدعو اليهود إلى التمسك بالناموس، ومسيح التطور أو الانطلاق الذي أعلن عن ألوهيته وكشف عن سر موته وقيامته باعتباره تكفيرا عن خطايا البشر.

وبولس هذا الذى أحدث هذا التحول والذى بزّ كل حواريى عيسى وتلاميذه، لم يلتق بعيسى عليه السلام ولم يتشرف بصحبته، وهو وان كان لم يُعرف تاريخ ميلاده بدقة فمن المتفق عليه أنه ظهر بعد رفع عيسى عليه السلام، يهوديا متعصبا مفرطا في عدائه للمسيح ودعوته، وقضى شبابه في اضطهاد أتباع عيسى وتلاميذه ومطاردتهم والبطش بهم في قسوة. وفجأة ودون تمهيد، وقد بلغ السابعة والثلاثين من عمره، يعلن ايمانه بالمسيح بل ورسولا منه الى العالم، ومكرزا بانجيل خاص به تلقاه بالهام من المسيح نفسه بتعاليم جديدة مخالفة تماما لما عرفه الناس والحواريون عن عيسى عليه السلام، وأهم تلك التعاليم التي كانت بكل معنى الكلمة انقلابا تاما على دين الحواريين وقاعدة لدين جديد تقوم على دعامتين :
الأولى : اعلان الاهية عيسى عليه السلام.
الثانية : أن موت عيسى وصلبه كان تكفيرا عن خطايا البشر.

وكان هذا الإعلان مفاجأة تامة للحواريين واليهود على حد سواء، فاعتبروه تجديفا وزندقة، وقاوموه مقاومة شديدة، ولكن بولس كان يتمتع بجلد وصبر ودهاء وبراعة فائقة في الجدل والإقناع، وإصرار ـ يدعو إلى التعجب والدهشة ـ على انتصار آرائه بكل السبل، وإضعاف مقاومة خصومه والانتصار عليهم، إلّا أنه دفع حياته ثمنا لعناده وإصراره، حيث صلب في أحب البلاد إليه ـ وهي روما ـ سنة ٦٧م تقريبا، والتي أصبحت فيها بعد عاصمة دينه الجديد. ولكن ظل تحول بولس من الأحداث البارزة في تاريخ المسيحية، التي تستأثر دون غيرها بأكبر قدر من الاهتمام والدراسة والتحليل والجدل حولها، وربما كانت تلك الشكوك التي ظهرت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ولا زالت تثار حتى اليوم، أثرا من آثار هذا التحول ونتيجة من نتائجه.

ونحن حين ندخل حلبة هذا النقاش والجدل في تفسير تحول بولس ومغزاه ونتائجه فإننا نتعامل معه بمنطقه، ولهذا التزمت ألّا أستخدم في معالجتي هذه المسألة نصا أو استدلالا خارج نطاق النصوص المسيحية وأقوالهم التي يسلمون بها بقدر الإمكان.

وليست غايتي من هذا البحث غاية نظرية أنتهي فيها إلى مجرد المقارنة أو الترجيح فقط، وإنما قصدى في المقام الأول تحقيق غاية عملية تتصل بالطريقة التي ينبغي أن تكون عليها حياة الإنسان على الأرض.

فإذا كانت الأديان يظل دائما بيدها زمام حركة التاريخ الإنساني ـ والناس تسيرهم معتقداتهم أكثر مما تيسرهم أفكارهم ـ فإن علماء الأديان الذين يتميزون بفكر ينشد الحق والحقيقة، وإرادة تملك قوة التصميم على أن يتمتع الإنسان بالخير والسعادة، عليهم ألّا يحجموا عن بيان الحقيقة من الوهم فيما يدين به البشر من معتقدات وآراء مهما كانت المحاذير، فنجاة الإنسان وفوزه منوط باخلاص نياتهم والتجرد في العمل على هداية الإنسان إلى الحق والخير.

وأدعو الله مخلصا أن يكون باعثي وقصدي فيما كتبت: الإسهام في تحقيق هذه الغاية التي هي غاية كل دين صحيح.

ولتحقيق هذه الغاية فقد اقتضت خطة البحث تقسيمه تحت عناوين رئيسة، هي :

- أولا : النشأة والتكويـــن.
- ثانيا : التحول التاريخـــي.
- ثالثا : مغزى التحـــول.
- رابعا : عوامل الانتصـــار.
- خامسا : الخاتمـــة.

- ١ -

# النشـــأة والتكـــوين

وبولس: هو ذلك اليهودي الديانة، الفريسيّ المذهب، الروماني النشأة واللسان، الذي قيل عنه: «بدون بولس كان من المحتمل أن لا توجد المسيحية»[١].

وهو ابن لأسرة يهودية متدينة، لها شأنها ونفوذها في مدينة طرسوس من أعمال كيليكية بآسيا الصغرى، كانت مفترق طرق تجارية، ترد إليها القوافل محملة بالسلع والأفكار والمعتقدات من اليونان وإيطاليا وآسيا الصغرى والشام وما وراء النهرين وقبرص ومصر، فكانت مدينة شرقية من حيث انتماؤها الجغرافي والديني، وغربية من حيث إنتماؤها الثقافي والفكري، وقام في رحابها ما يمكن أن نسميه الآن بـ «الجامعة» مما كان سببا في شهرتها في العالم اليوناني الروماني عصر الميلاد، وعلى الأخص فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية.

وخلاصة القول: إن صاحبنا ولد بأرض يونانية، يتحدث لغة اليونان ويكتبها منذ نشأته، وينتمي إلى عائلة ذات شأن، ويحمل لقب «مواطن روماني» وراثة عن أبيه، فكان بذلك معدا إعداداً تاما لإدراك وتفهم التطلعات الدينية لدى يهود المهجر، والإفادة من الثقافة الهيلينية واستيعاب أصولها[٢].

كما كانت طرسوس تلك المدينة التي ولد بها بولس، تمثل نقطة المركز لثلاث مدن رئيسة، تعتبر بمثابة روافد رئيسة في تكوين وجدان بولس وعقله وأهدافه.

**الإسكندريـــة :**

وتقع على الشاطيء الآخر من بحر الروم، إلى الجنوب من طرطوس، وكانت عاصمة العالم الثقافية قبل أن تكون روما عاصمته السياسية بقرنين من الزمان، وبها جالية يهودية مرموقة تزيد على المليون نسمة، تذكر المصريين بالامتيازات التي كانت لأسلافهم أيام يوسف عليه السلام، حيث كان بيدهم زمام التجارة والنقل البحري

(١) المسيحية نشأتها وتطورها ص١١١ - شارل جنيبر - ترجمة عبد الحليم محمود منشورات المكتبة العصرية - بيروت.
(٢) انظر السابق ص٦٨ - ٦٩.

بين الشرق والغرب، وذلك بفضل الثقة التي أولاهم إياها «أغسطس» قيصر روما، وكذلك فإنه حين أراد «بطليموس» ملك مصر ترجمة أسفار اليهود للاطلاع عليها، هيأ لاثنين وسبعين عالما من أحبارهم الإقامة في جزيرة منعزلة لإنفاذ رغبته. ظلوا بها منعزلين عن العالم كما تروى الأساطير اثنين وسبعين يوما ـ حتى أتموا ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية، والتي تعرف الآن بالترجمة السبعينية، فأخرجوا بعملهم هذا اليهودية من الدائرة القبلية إلى الدائرة العالمية، وعلم الناس أن موسى عليه السلام أعظم شأنا من فيثاغورس.

كما كان منهم الفيلسوف «فيلون» السكندري (٣٠ق م ـ ٥٠م) الذى أدخل اليهودية دائرة الفلسفة اللاهوتية، وأخرج لنا فلسفة تمتزج فيها حكمة أنبياء بني إسرائيل بآراء أفلاطون، وترسم صورة لإله إنساني بدلا من إله إسرائيل القبلي، والذى يعد نفسه أبا لكل البشر، وتشمل رحمته جميع المؤمنين به، ويتجلى في نفوس الأولياء منهم، فينير بصائرهم بفيضه، ليرتفعوا من المنطقة البشرية إلى المملكة الإلهية[٣].

**روما :**

وتقع إلى الغرب من طرسوس، وكان بها هي الأخرى جالية يهودية قوية جلبهم إليها عبيدا القائد الروماني الكبير «بومباي»، حين تم له فتح سورية وفلسطين قبل الميلاد، ثم صاروا من سادتها حين ولى خلفه «يوليوس» الذي عرف ذكاءهم ونشاطهم فقربهم إليه، وعهد إليهم بشئون الجيش من الميرة والعدة، ومنحهم حق التصويت في مجلس الأمة، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحوا صرافين للقيصر ودائنين للملوك المخلوعين، ومهيمنين على سوق المال والتجارة ودور التمثيل والرقص، مما أحيا في نفوسهم الأمل في تحقيق حلمهم الدائم وتحقيق نبؤة دانيال في قيام مملكة إسرائيل على قرون روما الباغية، على يد المسيح المنتظر الذى أعطي «سلطانا ومجدا وملكوتا، لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، وسلطانه سلطان أبدي ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقضي»[٤].

(٣) انظر ابن الانسان ص٣٠ ـ ٣٢. اميل لودفيغ ـ ترجمة عادل زعتر دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٤٧م.

(٤) انظر سفر دانيال/ ٧

**أورشليـــم :**

أما في الزاوية الجنوبية الشرقية من طرسوس فتقع «أورشليم» وقد غمرتها في عهد بولس مياه الثقافة اليونانية المحملة بطمي من الثقافة البابلية والآشورية والمصرية، فغدت اليونانية لغة التخاطب والفكر والأدب بها، وأصبح الوالي الروماني يخاطب اليهودي باللغة اليونانية، وتدور المحاورات والمناظرات الكلامية والفكرية باللغة اليونانية، وتكتب العقود وصكوك الدين وتتم المرافعات أمام القاضي الروماني باللغة اليونانية، وتدور شئون الشراء والبيع والتجارة والمساومات باللغة اليونانية، وتتم المعاملات بالعملة اليونانية، ويضطر الكهنة والعلمانيون والعمال والفلاحون من اليهود إلى التفاهم مع الجنود والحكام والموظفين باللغة اليونانية، وحتى اليهود كانوا يفضلون قراءة النسخة اليونانية من التوراة على النسخة العبرية، التي انزوت داخل أورقة الهيكل، وعلى أرفف مكتبات الخاصة من الأحبار والكهان، وصار الكنيس أو الهيكل المقدس يتجادل فيه رواده، من الوافدين عليه من يهود المهجر للزيارة وتقديم القرابين في الأعياد، ويتصايحون باللغة اليونانية، ولكن مع ذلك ظل لأورشليم ولهيكلها سحرها الأسطوري، وغموضها المهيب في نفوس اليهود، ورمزاً لأحلامهم في السيطرة والسيادة العالمية، فلم تستطع اللغة أن تمحو نفوذها في نفوس اليهود الذين كانوا ينظرون إليها كعرش الله المنصوب على قبة سماء الدنيا بأسرها، فكانت قبلة اليهود الدينية والروحية والسياسية أينما كانوا، رغم ما يحتدم فيها من جدل ديني عنيف، ظل على الدوام سمة من سمات الشخصية اليهودية، وكان وقت بولس يدور بين أربع طوائف رئيسية :

**الصديقيون :**

ويمثلون طبقة الأشراف والأثرياء من اليهود وكانوا منفتحين على الدنيا وعلى الشعوب الأخرى بالقدر الذى يحقق مصالحهم ومكاسبهم الدنيوية، ولا يلقون بالا لانتقادات المتطرفين والمتزمتين من الطوائف الأخرى في تعاملهم مع الأجانب، ويكتفون من التراث اليهودى بالتوراة التي يفضلون نسختها اليونانية على العبرية، ولا يبالون في تطبيق أحكامها بشروح الأحبار وإلحاقاتهم وتدقيقاتهم الفقهية.

**الفريسيــــون :**

وكانوا على النقيض من الصديقين في تزمتهم وانغلاقهم، وتدقيقاتهم الفقهية، واحتقارهم للأجانب، والالتزام بشروح الأحبار والكهان للتوراة، حتى إنهم ليدققون في عدد الخطوات المباحة يوم السبت، ودام جدلهم عدة سنوات في صلاح الغلات كتقدمة للرب إذا ما حصدت سنابلها في اليوم الثاني من عيد الفصح، وكان هذا اليوم سبتا، وكان من الحنث العظيم عندهم ترجمة التوراة إلى لسان المشركين، وما أنزل الله باليهود من العقاب والهوان إلا جزاء السماح لغيرهم بالاطلاع على كلام الله وعهده لشعبه المختار.

**السامريــون :**

وهم من نسل الذين بقوا بفلسطين من عوام اليهود أثناء الأسر البابلي، فوقع من هذا اختلاط في السكن والنسب والعادات والتقاليد مع الشعوب الأخرى. فلما عاد يهود السبي نظروا إليهم نظرتهم إلى الأجانب، ورفضوا أن يشركوهم في إعادة بناء الهيكل[٥]، فعمد هؤلاء إلى بناء هيكل خاص بهم في «جرزيم» مكان نابلس الحالية، وجعلوا يتعمدون تدنيس هيكل بيت المقدس وتحقيره، تعبيرا عن غيظهم وحنقهم، وأعادوا بذلك شأن انقسام مملكة إسرائيل بعد سليمان ـ عليه السلام ـ إلى دولتين: يهوذا في الجنوب، وإسرائيل في الشمال، لكل منهما هيكلها وعبادتها المختلفة.[٦]

وقد بقي هيكل جرزيم منافسا لهيكل أورشليم زهاء مائتي سنة، حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس قبل الميلاد بمئة سنة تقريبا، ولكنهم أعادوا بناءه مرة أخرى وظل قائما إلى أن هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد.

وكان للسامريين توراتهم الخاصة بهم، ولا يقدسون إلا هيكلهم في «جزريم» وقد استحكم عداؤهم لباقي اليهود في عصر الميلاد، حتى بطل الأمان في السفر بين السامرة والبلاد الأخرى، وكان يتعرض للإهانة والنكال كل من يخاطر بالسفر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال من غير السامريين، لاعتقادهم أنهم ـ دون

---

(٥) انظر سفر نحميا ١٣ وغرر ٤
(٦) أخبار الأيام الثاني ـ ١٠

غيرهم ـ هم أبناء اسرائيل، ومن المحقق أن هذه الطائفة كان لها شأن في تطور عقيدة المسيح المنتظر للخلاص، وأنه سيكون منهم، فلما تغلبت حجة أصحاب مملكة يهوذا أن أورشليم هي مقر الملك المنتظر طوروا تلك العقيدة إلى الإيمان بالخلاص الروحاني والهداية الشعبية، وأخذوا يشككون في أخبار هيكل أورشليم، ومن عسى أن يبايعوه بالملك إذا حان الموعد المقدور.(٧)

وإذا نظرنا إلى هذه الطوائف الثلاث، نجد أنها ـ برغم ما بينها من اختلاف وتنافر ـ كانت بينها عقيدة مشتركة، وهي أنهم جميعا على انتظار المسيح، الذي يوحد شمل الأمة، وينفي الخبث، الذي كانت ترى كل طائفة أنه من شيمة الطوائف الأخرى، وينصر الحق الذى تمسكت به على الباطل الذى انغمست فيه الفرق الأخرى، ويحقق بكلمته وقوته مملكة إسرائيل وإعلان مجدها وسيادتها على العالمين من جديد.(٨)

## أتباع عيسى عليه السلام :

وهم الذين آمنوا بعيسى عليه السلام من اليهود، والشائع أنهم كانوا طائفة من صيادي الأسماك، لم يبلغوا مبلغ الفقهاء، ولكنهم ـ كذلك ـ لم يبلغوا مبلغ الأمية الجاهلية في الغباء، وكان منهم من يعرف اليوم بأمور التحصيل، وهو «متى» العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه، «ويوحنا» الذى ينسب إليه الإنجيل الرابع، وأخوه «يعقوب»، وهم من بني خؤولة المسيح، وكانا يشتغلان بصيد السمك وتجارته، وكذلك «سمعان» و «أندراوس» وكانا صيادين أيضا، كما يستفاد من إنجيل «مرقس» الذى يقول في معرض حديثه عن المسيح : «وفيما هو يمشي عند بحر الجليل أبصر سمعان وأندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر، فإنهما كانا صيادين فقال لهما يسوع : هلم ورائي فأجعلكما تصيران صيادي الناس، فللوقت تركا شباكهما وتبعاه، ثم اجتاز من هناك قليلا فرأى يعقوب بن زبدى ويوحنا أخاه، وهما في السفينة يصلحان الشباك، فدعاهما للوقت، فتركا أباهما . وذهبا وراءه»(٨).

---

(٧) انظر حياة المسيح ص : ٥٦ ـ ٥٧ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ط٢ بيروت ١٩٦٩.

(٨) انظر الملل والنحل ١/٢٠٠ ـ الشهرستاني ـ تخريج محمد فتح الله بدران ـ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦م.

(٨) الإصحاح ١/٦ ـ ٢٠

ومنهم يعقوب: وهو من أقارب المسيح عليه السلام، وكان يتسم بالجرأة والإقدام، «وبطرس» الذى كان أشبه بالجندي في هيأته ومعرفته باستعمال السلاح، وكان أكثرهم ثقافة «لوقا» الطبيب صاحب الإنجيل المعروف باسمه، و «نيقوديمس» الذي كان عضوا في المجمع اليهودي، وهؤلاء كانوا يمثلون الصفوة من أتباع عيسى عليه السلام، الذين يمتلؤون بحبه، ويؤمنون به في صدق وبساطة، وكان بالنسبة إليهم ذلك النبي البار الصالح، الذى جاهد قدر طاقته في هداية قومه، ودعاهم في وداعة وسماحة وتلطف وصبر إلى إقامة الناموس الذى أنزله الله على موسى عليه السلام وإلى البر والتقوى(٩).

ويبدو أن الطوائف الأخرى كانت تنظر إليهم بمشاعر متضاربة، فهم وان كانوا بالنسبة لعوام اليهود قد آمنوا بعيسى الذي هو في النهاية واحد من الاسرائيليين، إلا أن دعوتهم كانت بالنسبة للأحبار والكهان تهديدا مباشرا لنفوذهم ومصالحهم، وكشفا صريحا لفسادهم وتهاونهم في أمور الشريعة، ولأساليبهم في استغلال النصوص وتحريفها وتبديلها لخدمة أغراضهم، واتهاما للجميع بالحالة التي وصل إليها اليهود في الهوان والفساد، وقد انعكس أثر هذا كله على علاقتتهم ومعاملتهم لأتباع عيسى حيث عاملوهم كأبناء عقوق ومنشقين، فكانت هذه الطائفة ملاحقة بالكراهية والشكوك من باقي اليهود، ومن الرومانيين الذين وسوس لهم اليهود في المؤمنين بعيسى وبنواياهم.

هذه هي البيئة التي نشأ فيها بولس، والروافد التي أثرت في تكوينه الديني والفكري والنفسي، أما هو فقد كان يتمتع بمواهب فائقة، ونبوغ مبكر، لفت إليه الأنظار منذ نشأته، وكان يدعي إذ ذاك شاول، ولم يكد يشب عن الطوق حتى وجهه والده إلى دراسة اللاهوت في أكبر معاهد أورشليم الدينية، وأهَّله استعداده الخاص وحماسه الديني الذي ورثه عن أبيه إلى التفوق في دراسة التاريخ والتراث اليهودي والتفقه في اللاهوت وعلم الكلام، حتى استوعب مقاصده، وبلغ الغاية فيه، وأصبح فريسيا متعصبا، واشتهر بأنه كان أكثر المتعصبين غلظة في معاملة أتباع المسيح الذى لم يتشرف بصحبته أو الالتقاء به، ويحدثنا سفر أعمال الرسل عن مقدار

(٩) انظر حياة المسيح ص٢٢٢ - ٢٢٣

ما كان يفيض به قلبه بغضا وحقدا ضدهم، حتى إنه وهو شاب صغير اشترك في رجم «استفانوس» الذى كان من أخلص أتباع المسيح، حتى الموت[١٠].

ثم يقول : «أما شاول فكان لم يزل ينفث تهددا وقتلا على تلاميذ الرب، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا في الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم»[١١]، أما بولس فيقول في رسالته إلى أهل غلاطية : «فإنكم سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهودية، أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط، وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثير من أترابي في جنسي، إذ كنت أكثر غيرة في تقليدات آبائي»[١٢] وفي رسالته إلى أهل فيلبي يعرفهم بنفسه قائلا : «من جهة الختان مختون في اليوم الثامن من جنس إسرائيل من سبط بنيامين، عبراني من العبرانيين من جهة الناموس، فريسي من جهة الغيرة مضطهد الكنيسة من جهة البر الذي في الناموس، بلا لوم»[١٣]. وفي رسالته إلى تلميذه تيموتاوس، الذي أرسله يبشر أهل أفسس بإنجيله آمرا إياه بأن لا يبشر بأقوال غيره من تلاميذ المسيح، يقول: «طلبت منك أن تمكث في أفسس لكي توصي قوما أن لا يعلموا تعليما آخر. . وإن كان شيء آخر يقاوم التعليم الصحيح حسب إنجيل مجد الله المبارك الذى أؤتمنت أنا عليه. . . أنا الذى كنت قبلا مجدفا ومضطهداً ومفترياً. . »[١٤]، وفي رسالته إلى تيطس يعزيه قائلا : «نحن أيضا قبلا كنا أغبياء غير طائعين، ضالين، مستعبدين للشهوات ولذات مختلفة، عائشين في الخبث والحسد، محقوقين، مبغضين بعضنا بعضا»[١٥].

هكذا كان بولس في تكوينه ونشأته وسيرته قبل تحوله المفاجيء إلى المسيحية.

---

(١٠) انظر أعمال الرسل : ٧، ٨
(١١) ٩/١ - ٢
(١٢) ١/١٣ - ١٤
(١٣) ٣/٥ - ٦
(١٤) ١/٣ - ١٢
(١٥) ٣/٢.

## - ٢ -

# التحـــول التاريخـــي

لقد تحول بولس فجأة ودون تمهيد إلى النقيض تماما، من مطارد غليظ القلب لا يرحم، قاسٍ في تعصبه وخصومته ضد عيسى عليه السلام وأتباعه، إلى مؤمن ورع محب للمسيح، ورسول من أكبر رسل المسيحية قدرا، وأعظمهم أثرا في تاريخها، وذلك أثر نوبة روحية عنيفة داهمته على طريق دمشق في رحلة من رحلاته المشهورة في اصطياد أتباع عيسى عليه السلام.

وسفر أعمال الرسل، والذى يعزوه كثير من الباحثين إلى بولس نفسه[١٦]، هو المصدر الرئيس الذي يعتمد عليه في نقل هذا الحدث التاريخي إلينا.

يقول: «.. وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغته أبرق نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له: شاول شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذى أنت تضطهده.. فقال وهو مرتعد ومتحير: يارب، ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقال لك: ماذا ينبغي أن تفعل، وأما الرجال المسافرون معه توقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدا، فنهض شاول من الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحدا، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق وكان ثلاثة أيام لا يبصر، فلم يأكل ولم يشرب.

وكان في دمشق تلميذ اسمه حنانيا، فقال له الرب في رؤيا: يا حنانيا، فقال: هأنذا يا رب، فقال له الرب: قم واذهب إلى الزقاق الذي يقال له المستقيم، واطلب في بيت يهوذا رجلا طرسوسيا اسمه شاول، لأنه هوذا يصلي.. فأجاب حنانيا: يارب، قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسيك في أورشليم، وههنا له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يدعون باسمك. فقال له الرب: اذهب لأن هذا لي إناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبني اسرائيل لأني سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمي.
فمضي حنانيا ودخل البيت ووضع عليه يديه وقال: أيها الأخ شاول، قد أرسلني

(١٦) انظر مقدمة تفسير العهد الجديد ـ أعمال الرسل ـ وليم باركلي ـ دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة

الرب يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه لكي تبصر وتمتلىء من الروح القوي، وللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور فأبصر في الحال، وقام واعتمد وتناول طعاما فتقوى.
وكان شاول مع التلاميذ الذين في دمشق أياما، وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله. فبهت جميع الذين كانوا يسمعون.. وأما شاول فكان يزداد قوة ويحيّر اليهود الساكنين في دمشق، محققا أن هذا هو المسيح[١٧].

ويلاحظ من هذا النص: أن بولس أول من قال بألوهية المسيح، وأن تلك المقالة بهت لها اليهود، وتحيروا فيها، وأنكروا على بولس التجديف بها، حتى إنهم عزموا على قتله، إلا أنه فر من دمشق قبل أن يتمكنوا منه.[١٨].

وفي رواية أخرى على لسان بولس، يقول في معرض دفاع طويل عن نفسه أمام مجامع القدس الذين بهتوا أيضا لمقالته، وأوشكوا أن يقتلوه لولا السلطات الرومانية[١٩] يقول: «أنا رجل يهودي طرسوسي كيليكية، ولكن ربيت في هذه المدينة مؤدبا عند رجلي «عمالائيل» على تحقيق الناموس الأبوي، وكنت غيورا لله كما أنتم جميعكم اليوم، واضطهدت هذا الطريق حتى الموت، مقيدا ومسلما الى السجون رجالا ونساء، كما يشهد لي أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذ أخذت أيضا منهم رسائل للأخوة إلى دمشق، ذهبت لآتي بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا.

فحدث لي وأنا ذاهب ومتقرب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار بغتة أبرق حولي من السماء نور عظيم فسقطت على الأرض، وسمعت صوتا قائلا لي: شاول لماذا تضطهدني؟ فأجبت من أنت يا سيد؟ فقال لي: أنا يسوع الناصري، الذى أنت تضطهده! والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا، ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني، فقلت: ماذا أفعل يا رب؟
فقال لي الرب: قم واذهب إلى دمشق، وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل.. وإذ كنت لا أبصر من أجل بهاء ذلك النور اقتادني بيدي الذين كانوا معي، فجئت الى دمشق.

---

(١٧) ٩/٣ ـ ٢٢
(١٨) ٩/٢٣ ـ ٢٥
(١٩) الإصحاح ٢١ ـ ٢٣

ثم إن حنانيا رجلا تقيا حسب الناموس ومشهودا له من جميع اليهود السكان أتى لي وقال : أيها الأخ شاول ، أبصر ، ففي تلك الساعة نظرت إليه ، فقال : إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته ، وتبصر البار ، وتسمع صوتا من فمه ، لأنك ستكون له شاهدا لجميع الناس بما رأيت وسمعت الآن ، لماذا تتوانى؟ قم واعتمد ، واغسل خطاياك داعيا باسم الرب.

وحدث لي بعد أن رجعت إلى أورشليم وكنت أصلي في الهيكل أني حَصُلَت في غيبة فرأيته قائلا لي : أسرع واخرج عاجلا من أورشليم ، لأنهم لا يقبلون شهادتك عني ، فقلت : يا رب ، هم يعلمون أني كنت أحبس وأضرب في كل مجمع الذين يؤمنون بك ، وحين سفك دم استفانوس شهيدك كنت أنا واقفا وراضيا بقتله ، وحافظا ثياب الذين قتلوه ، فقال لي : اذهب فاني سأرسلك إلى الأمم بعيدا[٢٠].

ورغم اختلاف الروايتين في بعض الأمور التي يمكن تجاوزها ، إلا أن هناك أمرا يصعب تجاوزه ، وهو اختلافهما في حال شهود الحادث ، حيث تذكر الرواية الأولى أنهم سمعوا صوتا ولم يروا شيئا ، أما هذه الرواية فتذكر أنهم لم يسمعوا شيئا ورأوا نورا!؟ مع ملاحظة اتفاق الروايتين على وصف المسيح بالرب ، ووصف بولس برسوله إلى العالم.

وهناك الرواية الثالثة وقد وردت كذلك على لسان بولس في معرض دفاعه عن نفسه أيضا أمام الملك «أغريباس» في قيصرية ، حتى لا يسلمه إلى اليهود الذين طلبوا محاكمته بأنفسهم ، خشية أن يقتلوه ، لاتهامهم إياه بالكذب والتجديف[٢١].

ومما تجدر الاشارة إليه هنا : أن كل الروايات أتت في سفر أعمال الرسل ، والذي يكاد أن يكون تأريخا لسيرة بولس وخلافاته مع اليهود وتلاميذ المسيح عليه السلام في شخص عيسى ودعوته ، وليس هناك تأييد لهذه الروايات في تحول بولس أو شهود هذا التحول من طريق آخر.

---

(٢٠) ٢٢/٣ - ٢١

(٢١) انظر الإصحاح ٢٥

## - ٣ -
## مغـــزى التحـــول

وقد ذهب الباحثون في تفسير هذا التحول التاريخي مذاهب شتي يمكن إجمالها في نظريتين :

**النظرية الأولـى** : ويمكن أن نسميها النظرية النفسية.

وأصحاب هذه النظرية يفسرون التحول بأسباب باطنية لاشعورية، ويعتبرونه لحظة انفعال نفسي وروحي عنيف، نتيجة تفاعلات نفسية وروحية وفكرية ودينية أخذت في التراكم المطرد البطيء في اللاشعور لدى بولس منذ نشأته إلى أن بلغت ذروتها في صورة انفجار معجزي مفاجيء على طريق دمشق.

ويمثل هذا الفريق من المحدثين: المفكر والعالم المسيحي المدقق في مقارنة الأديان الدكتور شارل جنيبير، وقد بذل جهدا كبيرا في تحليل هذا الحدث، الذي ينظر إليه كمعجزة دينية أو روحية، والبحث في أصوله وأسبابه اللاشعورية، وينتهي من هذا التحليل إلى أن هذا الحدث الفريد كان نتيجة صدام حاد وقع في أعماق بولس بين طبيعته المتقلبة النازعة إلى الهزات والتهيؤات الصوفية، وتلك التأثيرات المتراكمة في اللاشعور لديه، من أسرار وأساطير وثقافات متعددة تسربت إلى نفسه وفكره ووجدانه من مدارس طرسوس وأنطاكيا، التي كانت تعج بأفكار وأساطير ومعتقدات حول فكرتين رئيستين وهما: «المنقذ» و «النجاة». بالاضافة إلى تأثيرات من أساتذته الفريسيين التي جعلته يتعلق بالأمل اليهودي في حلول مملكة الله أو شعبه المختار، وما غرسته هذه التأثيرات في نفسه من شعور عميق بالقلق والعجز عن مقاومة الخطايا التي تبرزها تفسيراتهم في كل المظاهر السلوكية لليهود على الأرض، والتي تؤخر قيام تلك المملكة الموعودة، وتحقيق الأمل في ظهور المنقذ الذي يتم به الخلاص من الخطايا ويعلن سيادة شعب الله على العالمين، وتلك بالذات هي الحالة النفسية التي تؤجج جذوة الحماس الديني والروحي وتدفع صاحبها إلى الاندفاع في البحث عن المنقذ أو الوسيط الإلهي المرشد إلى النجاة والفوز.

وكل هذا تم في نطاق عقله الباطن في بطء وصمت، أما الانفعال نفسه فقد وقع في صورة لمع خاطفة من التصوف، بوحي إلهام مفاجيء من المسيح.

والخلاصة التي ينتهي إليها جنيبير هي : أن باطن بولس كان موضوعا لنوعين من التأثيرات الممهدة للأزمة الروحية، التي جعلت منه مسيحيا بالقوة وداعيا للمسيحية بالإرادة.

**أما النوع الأول** : فإنه يقوم عند تحليله النهائي على عاملين :

واحد منهما: هو فكرة «المنقذ» التي كانت ملازمة لذكريات طفولة بولس في طرسوس، وقريبة في بعض جوانبها من الأمل في حلول مملكة الله.

**أما العامل الثاني** : فكان تربيته الفريسية في الشريعة اليهودية، وما غرست هذه التربية في نفسه من رهبة وقلق دائم أمام الخطايا المحيطة به من كل جانب، والتي لم يكن من الممكن اغفالها أو تجنبها.

**أما النوع الثاني** من التأثيرات: فيتمثل في مظاهر اليقين اللاهوتي في اعتماد تحرير الإنسان من الخطيئة و «النجاة»، أو الخلاص على يد المسيح المنتظر[٢٢].

هذا هو التحليل النفسي في تفسير تحول بولس المفاجيء، ذلك التحول الذى غير خريطة العالم الدينية والاجتماعية والسياسية.

ولكن وإن كنا نتفق مع أصحاب هذه النظرية من حيث نتائج هذا التحول والوقائع التي اعتمدوا عليها في انشاء بولس لدين جديد، إلا أن هناك صعوبات عديدة تعترض تفسير هذه النظرية لأسباب هذا التحول حيث إن :

١ ـ هذا التحول في مضمونه ومغزاه يعني بالنسبة لبولس حدوث أمرين جديدين في سيرته .
الأول: تحوله من كافر بالمسيح ومنكر له إلى مؤمن به وعابد له، ورسوله إلى العالمين.
الثاني: أنه بإلهامات من المسيح نفسه يشر بإنجيل جديد يقوم على عقيدة جديدة في المسيح مضمونها : تأليه عيسى وصلبه، تكفيرا عن خطايا البشر، وهو أمر إستحدثه بولس، يختلف تماما عن تعاليم العهد القديم والأناجيل الأربعة من العهد الجديد.

وهذا بحسب تأكيد شارل أحد أركان هذه النظرية حيث يقول : «إن مفهوم

---

(٢٢) المسيحية ص٩٠ ـ ١٠٠

ابن الإنسان غير موجود لدى بولس، لقد أبد له بمفهوم آخر لا يمت بصلة إلى الجماعات المتصلة الأواصر باليهودية فهو اذن لم يؤسس مفهومه في شخص عيسى على ما أخذه من تلك الجماعات، وإن موت عيسى في نظر الاثنى عشر ليس بالتضحية التكفيرية، أما عند بولس فنعم، وفي عقيدته أن المسيح مات من أجل خطايا البشر، ولم يكن الاثنا عشر ليوافقوا على نعت عيسى بـ«ابن الله»، مكتفين بتعبير «خادم الله»، أما عند بولس فلقب «ابن الله» كثير الاستعمال بالنسبة لعيسى.

إن بعض المفاهيم الجوهرية لدى المجتمع الأول نجدها إذن غريبة أو مجهولة أو غير ذات شأن لدى الحوارى المرسل إلى المشركين، ولا بد لنا من القول: بأنه أخذها عن مصادر أخرى غير المجتمع المسيحي الذى أسسه أصحاب عيسى أنفسهم[٢٣]، ثم يقول: «لقد تجاهل فكره فكرة عيسى الناصري التي أغرم بها الاثنا عشر، ولم يتجه إلا إلى عيسى المصلوب، فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود وتمثل نوعا من التشخيص لروح اله...»[٢٤].

فإذا كان شارل يقر بهذا التباين بين تعاليم بولس وتعاليم المسيح، فإن السؤال الذي يرد عليه هو: كيف يمكن للمسيحي الإيمان بقداسة الكتاب المقدس مع التسليم بتناقضه مع إنجيل بولس الذى هو جزء منه؟! ألا يؤدي ذلك بالمسيحي إلى التسليم بتناقض الله نفسه؟!

ربما تصور أصحاب هذه النظرية الجواب في قول بولس: «كلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع.. ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر.. بل نتكلم بحكمة الله التي سبق تعينها قبل هذا الدهر لميجئنا»[٢٥]، فإن قول بولس هذا هو الدعوى نفسها وليس لديه دليل على صدقها، ومن المباديء الأساسية في طرح أي دعوى: هو إقامة الدليل على صدقها، وليس الاستدلال بالدعوى على الدعوى نفسها، وإلا جاز صدق النقيضين، وامتنع الكذب. فضلا عن أن قول بولس لم يرفع الإشكال نفسه بل هو تأكيد ضمني: إما بنسخ انجيل بولس لما قبله من الكتاب المقدس، وإما التسليم بتناقض الوحي.

---

(٢٣) السابق ٩١ - ٩٢

(٢٤) السابق ١٠٥

(٢٥) كورنتوس ٢/٤، ٦ - ٧

٢ ـ إنه مما لا يتفق مع المنطق في حالة بولس، والمفترض أنه من أهل الكتاب الموحدين، أن يتحول من عقيدة التوحيد إلى عقيدة وثنية في الشكل والمضمون، تقوم على تأليه البشر، وأن لله ولدا بذله فداء لخطايا البشر، وهو قول لا نجد له أصلا باعتراف أصحاب هذه النظرية، في التوراة والأناجيل التي بين أيدينا، ولم ينسبه أحد إلى أنبياء بني اسرائيل قبل بولس، ومع ذلك يأتي أصحاب هذه المدرسة ليفسروا لنا هذا الانقلاب بحالة من التصوف الإلهامي الإلهي، وهو تفسير على غاية ما يكون شذوذا عن السنن المعروفة في مثل هذا النوع من التجارب الروحية، التي تنتهي كما نعلم إلى تحول أصحابها من الباطل والوهم إلى الحقيقة، ومن الوثنية إلى التوحيد لا على هذا النحو الذى انتهى إليه تحول بولس.

٣ ـ كما أن شارل نفسه يعترف بالصعوبات التي تواجه هذه النظرية حين يبدي دهشته من عدم منطقية سلوك بولس بعد التحول، وبعجزه عن تفسير هذا السلوك، فيقول : «إن رؤيا طريق دمشق لم تغير من ذات بولس، بل دفعته إلى تطبيق مبادئه القديمة في اتجاه جديد. . وراح يعمل فكره وخياله ويطبق أساليبه التي اعتادها كيهودي وفريسي من أهل المهجر. . وحتى في دفاعه عن عقيدته الجديدة وهجومه على الشريعة اليهودية قد بقي يهوديا كما كان من قبل»[٢٦].

ثم وهو يعلن صراحة أن تحول بولس، وإن كانت مراحله واضحة تماما بالنسبة له، إلا أن السبب الحقيقي لهذا التطور ظل طي الكتمان[٢٧]، واعترافه بالافتقار إلى معلومات جديدة تكشف هذا الغموض الذى يحيط تحول بولس فيقول : «على أي حال فإن تساؤلا آخر ما زال ينتظر فصل القول، وقد يكون في الإجابة عليه عنصر هام من المعلومات اللازمة للتعرف على ذلك التطور الغامض في سيرة بولس الدينية»[٢٨]، مما يعني في النهاية التسليم بقصور تلك النظرية في تفسير هذا التحول التاريخي.

والواقع أن هذا الغموض الذى يشكوا منه أصحاب هذه النظرية لا يحتاج إلى معلومات جديدة في تفسيره أو كشفه، أكثر مما يحتاج إلى نظرة جديدة ومنهج جديد في

(٢٦) المسيحية ص١٠٠
(٢٧) المسيحية ص٩٩
(٢٨) المسيحية ص٨١

قراءة النصوص وتفسير الوقائع، فإن مشكلة أصحاب هذه النظرية أنهم يعتمدون على عاطفة دينية وإيمان مسبق، أو هوى معين في بولس، فيبدأون البحث بمسلمة يبنون عليها، وهي صدق بولس فيما يدعيه، مما يجعلهم ينظرون إلى الوقائع والنصوص في إطارها العاطفي والديني، ويفسرونها في ضوء إيمانهم، وليس في إطارها الطبيعي والمنطقي.

**النظرية الثانية** ـ ويمكن أن نسميها «نظرية الدوافع»

وأصحاب هذه النظرية، وإن كانوا يتفقون مع أصحاب النظرية الأخرى في نتائج التحول وآثاره، إلا أنهم يختلفون عنهم في تفسير هذا التحول وأسبابه، فيرون أن بولس إنما كان يعمل بإرادة مسبقة، وخطة مرسومة، لتحقيق أهداف معينة، وأن هذا التحول المفاجيء كان وسيلة لجأ إليها بولس لإنجاح خطته في تحقيق هدفه.

وتلك النظرية يشايعها كثير من المفكرين وعلماء تاريخ الأديان. ومن أبرزهم: الإمام ابن حزم الأندلسي، الذي يفسر تحول بولس بدوافع شخصية، وبتحريض من أحبار اليهود في إفساد دعوة عيسى عليه السلام، فأعلن هذا التحول المفاجيء ليسهل عليه تحقيق أهدافه في طمس دعوة عيسى باسم عيسى نفسه، ويعتمد ابن حزم في تأييد مذهبه هذا بما سمعه بنفسه من المعاصرين له من علماء اليهود أنفسهم، حيث يقول: «وفيما سمعنا علماءهم يذكرونه ولا يتناكرونه أن أحبارهم الذين أخذوا عنهم دينهم والتوراة وكتب الأنبياء عليهم السلام اتفقوا على أن رشوا بولس البنياميني لعنه الله وأمروه بإظهار دين عيسى عليه السلام وأن يضل أتباعه ويدخلهم إلى القول بإلهيته، وقالوا: نحن نحتمل إثمك في هذا ففعل وبلغ من ذلك حيث قد ظهر»[٢٩].

ويعزز ابن حزم هذه الشهادة لمعاصريه من اليهود بالقياس على ما حدث في الإسلام من عبدالله بن سبأ، الذى تحول من اليهودية إلى الإسلام لهدف مماثل، وهو إفساد المسلمين في دينهم فيقول:

«وهذا أمر لا نبعده عنهم، لأنهم راموا ذلك فينا وفي ديننا.. وذلك بإسلام عبدالله ابن سبأ المعروف بابن السوء اليهودي الحميرى لعنه الله، ليضل من أمكنه

(٢٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/٢٢١ ـ مكتبة المثنى بغداد

من المسلمين، فنهج لطائفة رذلة كانوا يتشيعون في علي رضي الله عنه، أن يقولوا بإلهيته على نهج بولس لأتباع المسيح عليه السلام أن يقولوا بألهيته، وهم الباطنية والغالية إلى اليوم»[٣٠].

وكذلك نجد أيضا الإمام القرطبي الذي يتفق مع ابن حزم فيما ذهب إليه، معتمدا في ذلك على وثائق تاريخية، يهودية وإسلامية، فيقول في معرض استدلاله على تحريف دعوة عيسى عليه السلام: «ومما يدل على أنهم في كتابهم وشرعهم على غير علم: ما استفاض في كتب التواريخ عندنا وعندهم، وذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله تعالى ودعا بني إسرائيل للإيمان فأجابه من شاء الله منهم، فلما رفعه الله تعالى واستحلى الناس كلامه بعد ذلك حتى بلغ عدد بني اسرائيل سبع مائة رجل، فكانوا يجاهدون في بني إسرائيل ويدعون إلى الايمان، فقام بولس اليهودي، - وكان هو الملك في بني اسرائيل - فحشد عليهم الأجناد وخرج عليهم وقاتلهم فهزمهم وأخرجهم من بلاد الشام، حتى انتهى فلهم إلى الضروب فأعجزوه، فقال بولس الملك لجنوده: ان كلام هؤلاء لمستحلى، وقد قدموا على عدوكم وسيرجعونهم في ملتهم فيكثرون علينا، فيخرجون إلينا ويخرجوننا من بلاد الشام، ولكني أرى لكم رأيا. قالوا: وما هو؟ قال: تعاهدوني على كل شيء كان خيرا أو شرا ففعلوا، فترك ملكه ثم لبس لباسهم وخرج إليهم حتى انتهى إلى عسكرهم فأخذوه وقالوا: الحمدلله الذى أخزاك وأمكنا منك. فقال لهم اجمعوا رؤوسكم فإنه لم يبلغ من حمقي أن آتيكم إلا ومعي برهان، فأبلغوه رؤوسهم، فقالوا: مالك؟ فقال: إني لقيني المسيح منصرفا عنكم، فأخذ سمعي وبصري وعقلي، فلم أسمع ولم أبصر ولم أعقل، ثم كشف عني فأعطيت الله عهدا أن أدخل في أمركم، فأتيت لأقيم فيكم وأعلمكم التوراة وأحكامها، فصدقوه، فأمرهم أن يبنوا له بيتا ويفرشوه رمادا ليعبد الله فيه - بزعمه - ويعلمهم التوراة، ففعلوا، وعلمهم ما شاء الله ثم أغلق الباب دونه، فأطافوا به، وقالوا: نخشى أن يكون رأى شيئا يكرهه، ثم فتحه بعد يوم، فقالوا: أرأيت شيئا تكرهه؟ قال: لا، ولكني رأيت رأيا وأعرضه عليكم، فإن كان صوابا فخذوه، وإن كان خطأ فردوني عنه، قالوا: هات. قال: هل رأيتم سارحة تسرح إلا من عند ربها وتخرج إلا من حيث تؤمر؟ قالوا: لا. قال: فإني رأيت الصبح

(٣٠) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/٢٢١

والليل والشمس والقمر والبروج إنما تجيء من ههنا ـ يعني الشرق ـ وما أوجب ذلك إلا وهو أحق الوجوه أن يصلى إليه، قالوا: صدقت، فردهم عن قبلتهم(٣١).
ثم أغلق الباب بعد ذلك بيومين، ففزعوا أشر من الأول وأطافوا به، ففتحه، فقالوا : أرأيت شيئا تكرهه؟ قال: لا، ولكني رأيت رأيا، قالوا هات، قال ألستم تزعمون أن الرجل إذا أهدى إلى رجل الهدية وأكرمة الكرامة فردها شق ذلك عليه؟ وأن الله سخر لكم ما في الأرض وجعل ما في السماء لكم كرامة، فالله أحق أن لا ترد عليه كرامته.

فما بال بعض الأشياء حلال وبعضها حرام؟! ما بين البقة إلى الفيل حلال(٣٢) قالوا : صدقت.

ثم أغلق بعد ذلك ثلاثا، ففزعوا أمثل من الثانية، فلما فتح قال لهم : إني رأيت رأيا، قالوا: هات، قال: لنخرج كل من في البيت الا «يعقوب» و «نسطور» و «ملكون» و «المؤمن»، ففعلوا، فقال : هل علمتم أن أحدا من الإنس خلق من الطين خلقا فجعله فصار نفسا؟ قالوا: لا. قال: فهل علمتم أن أحدا من الإنس أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى؟ قالوا: لا. قال: هل علمتم أن أحدا من الإنس ينبيء الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؟ قالوا: لا، قال: فاني أزعم أن الله تعالى تجلى لنا ثم احتجب! فقال بعضهم: صدقت، وقال بعضهم: لا، ولكنه ثلاثة: والد، وولد، وروح القدس. وقال بعضهم: الله وولده، وقال بعضهم: هو الله تجسم لنا، فافترقوا على أربع فرق :

فأما يعقوب فأخذ بقول بولس إن الله هو المسيح، وأنه كان ثم تجسد.

وأما نسطور فقال: ابن الله على جهة الرحمة..

وأما ملكون فقال: ثلاثة.

فقام المؤمن وقال لهم : عليكم لعنة الله، والله ما حاول هذا إلا إفسادكم،

---

(٣١) يعني حول قبلتهم من بيت المقدس قبلة اليهود، إلى جهة الشرق، وهي قبلة النصارى للآن، كما هو معروف.
(٣٢) هذا هو محور إنجيل بولس انظر مثلا : كورنتوس ٤/٣ ـ ٦

ونحن أصحاب المسيح قبله، وقد رأينا عيسى وسمعنا منه، ونقلنا عنه، والله ما حاول هذا إلا ضلالكم وفسادكم. . »(٣٣).

ولعل أول من أسس هذه النظرية - ان جاز لنا اطلاق هذا التعبير على شهادته: هو الحواري الجليل برنابا، والذي كان معاصرا لبولس، وكان في وقت ما من المعجبين بحماسه في الدعوة إلى المسيح، وقدمه بنفسه إلى بعض الحواريين في أورشليم الذين كانوا يتوجسون خيفة منه، فإنه كما يقول سفر أعمال الرسل: «لما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ، وكان الجميع يخافونه، غير مصدقين أنه تلميذ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل، وحدثهم كيف أبصر الرب في الطريق، وأنه كلمه أنه جاهر في دمشق باسم يسوع»،(٣٤) ولكن عندما اكتشف زيف بولس ونواياه في إبطال رسالة عيسى عليه السلام ألف إنجيله الذي هو عند التحقيق شهادة حاسمة في مغزى تحول بولس وأهدافه، ثم هي من جهة أخرى تعتبر بمثابة تزكية لما نقله إلينا ابن حزم والقرطبي عن معاصريهم من اليهود في هذا الشأن.

يقول برنابا في مقدمة إنجيله: «أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذى أمر به الله دائما، مجوزين كل لحم نجس الذين ضل في عدادهم أيضا بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع، لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله. وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصا أبديا، وليكن الله العظيم معكم وليحرسكم من الشيطان آمين»(٣٥).

ثم يشير برنابا إلى أن مقالة بولس تمتد جذورها إلى شبهات أثيرت في حياة عيسى نفسه، واستغلت معجزاته لترويج هذه الشبهات التي أثارت فتنة عامة

---

(٣٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٤٢ - ٢٤٣ - القرطبي - تحقيق أحمد حجازى السقا - دار التراث الغربي، القاهرة ١٩٨٠م.

(٣٤) ٩/٢٦ - ٢٧

(٣٥) إنجيل برنابا - دراسات حول وحدة الأديان. تحقيق سيف الله أحمد فاضل - دار القلم - الكويت ط٢ ١٩٨٣م

أصابت بذيلها الحواريين أنفسهم، وساعد على تفاقمها وانتشارها المعتقدات السائدة للوثنيين حينذاك في تأليه البشر، حتى إن عيسى عليه السلام لعن «بطرسَ» تلميذه حين دعاه مرة بـ«ابن الله»، وأخذ يمتحن إيمان حوارييه وتلاميذه وعقيدتهم في شخصه ورسالته، فسألهم: «ماذا يقول الناس عني؟ أجابوه: يقول البعض: انك إيليا، وآخرون أحد الأنبياء. أجاب يسوع وما قولكم أنتم فيَّ؟ أجاب بطرس: إنك المسيح ابن الله. فغضب حينئذ يسوع وانتهره بغضب قائلا: اذهب وانصرف عني لأنك أنت الشيطان، وتحاول أن تسيء إليَّ، ثم هدد الأحد عشر قائلا: ويل لكم اذا صدقتم هذا لأني ظفرت بلعنة كبيرة من الله على كل من يصدق هذا. وأراد أن يطرد بطرس فتضرع حينئذ الأحد عشر إلى يسوع لأجله فلم يطرده. ولكنه انتهره أيضا قائلا: حذار أن تقول مثل هذا الكلام مرة أخرى، لأن الله يلعنك. فبكي بطرس وقال: يا سيد لقد تكلمت بغباوة فاضرع إلى الله أن يغفر لي، ثم قال يسوع: إذا كان إلهنا لم يرد أن يظهر نفسه لموسى عبده، ولا لايليا الذى أحبه كثيرا، ولا لنبي ما، أتظنون أن الله يظهر نفسه لهذا الجيل الفاقد الايمان؟ بل ألا تعلمون أن الله خلق بكلمة واحدة كل شيء من العدم، وأن منشأ البشر جميعا من كتلة طين، فكيف إذا يكون الله شبيها بالإنسان؟! ويل للذين يدعون الشيطان يخدعهم. وانصرف يسوع بعد هذا وذهب إلى الجليل، إخمادا لهذا الرأي الباطل الذي ابتدأ أن يعلق بالعامة في شأنه»[٣٦].

ثم يتحدث برنابا عن مدى الاضطراب الذي أحدثه القول بألاهية عيسى وأسبابه فيقول: «وحدث في هذا الزمن اضطراب عظيم في اليهودية كلها لأجل يسوع، لأن الجنود الرومانية أثارت بعمل الشيطان العبرانيين قائلين: إن يسوع هو الله، قد جاء ليفتقدهم، فحدثت بسبب ذلك فتنة كبرى، حتى إن اليهودية كلها تدججت بالسلاح مدة الأربعين يوما، فقام الأب على الابن، والأخ على الأخ، لأن فريقا قال: إن يسوع هو الله، قد جاء إلى العالم، وقال فريق آخر: كلا بل هو ابن الله، وقال آخرون: كلا، لأنه ليس لله شبه بشري، ولذلك لا يلد، بل إن يسوع الناصري نبي الله، وقد نشأ هذا عن الآيات العظيمة التي فعلها يسوع الناصري نبي الله»[٣٧].

(٣٦) برنابا الفصل ٢/٧٠ ـ ١٥، والحوار بين عيسى وبطرس أورده متى ٢٣/١٦ ومرقس ١٣/٨.

(٣٧) الفصل ١/٩١ ـ ٧

والواقع : أنه لو لم يكن وراء هذه الفتنة من نفث فيها وأججها، لما أخذت هذا الشكل من الانتشار وإثارة الفوضي والاضطراب بين اليهود وأصحاب عيسى على الأخص، وهم أبناء بيئة دينية تؤمن بالمعجزات والآيات التي يجريها الله على أيدي البشر من الأنبياء والرسل، وكان هذا هو جوهر استدلال عيسى عليه السلام في دحض هذا التجديف، ودهشته من أن تكون معجزاته سببا في القول بالهيته، فحينما «قال الوالي وهيردوس : يا سيد، إنه من المحال أن يفعل بشر ما أنت تفعله. أجاب يسوع : إن ما تقوله لصدق، إن الله يفعل صلاحا بالإنسان، كما أن الشيطان يفعل شرا، لأن الإنسان بمثابة حانوت من يدخله برضاه يشتغل ويبيع فيه، ولكن قل لي أيها الوالي وأنت أيها الملك أنتما تقولان هذا، لأنكما أجنبيان عن شريعتنا، لأنكما لو قرأتما العهد وميثاق إلهنا رأيتما أن موسى حول بعصاه البحر دما، والغبار براغيث والندى زوبعة، والنور ظلاما، أرسل الضفادع والجرذان على مصر فغطت الأرض، وقتل الأبكار، وشق البحر وأغرق فيه فرعون، ولم أفعل شيئا من هذه، وكلّ يعترف بأن موسى إنما هو الآن رجل ميت. وأوقف يشوع الشمس، وشق الأردن، وهما ما لم أفعله حتى الآن وكلّ يعترف بأن يشوع إنما هو الآن رجل ميت، وأنزل إيليا النار من السماء عيانا، وأنزل المطر، وهما ما لم أفعله. وكلّ يعترف بأن إيليا انما هو بشر، كثيرون آخرون من الأنبياء والأطهار وأخلاء الله فعلوا بقوة الله أشياء لا تبلغ كنهها عقول الذين يعرفون إلهنا القدير الرحيم المبارك الى الأبد.

وعليه فان الوالي والكاهن والملك توسلوا إلى يسوع أن يرتقي مكانا مرتفعا ويكلم الشعب تسكينا لهم، حينئذ ارتقى يسوع أحد الحجارة. . وقال بصوت عال: ليصعد كاهننا إلى مكان مرتفع حيث يتمكن من تحقيق كلامي، فصعد الكاهن إلى هناك. فقال له يسوع بوضوح يتمكن كل واحد من سماعه : قد كتب في عهد الله الحي وميثاقه أن ليس لإلهنا بداية ولا يكون له نهاية؟ أجاب الكاهن، لقد كتب هكذا هناك، فقال يسوع: إنه كتب هناك أن إلهنا قدير، أكل شيء بكلمته فقط؟ أجاب الكاهن: إنه لكذلك، فقال يسوع : إنه مكتوب هناك أن الله لا يرى، وأنه محجوب عن عقل الإنسان، لأنه غير متجسد، وغير مركب، وغير متغير؟ فقال الكاهن : إنه لكذلك حقا، فقال يسوع: إنه مكتوب هناك كيف أن سماء السموات لا تسعه لأن إلهنا غير محدود؟ فقال الكاهن: هكذا قال سليمان النبي يايسوع. قال يسوع : إنه مكتوب هناك أن ليس لله حاجة لأنه لا يأكل ولا ينام ولا يعتريه نقص؟ قال الكاهن انه لكذلك. قال يسوع: إنه مكتوب هناك أن إلهنا في كل مكان، وأن لا

إله سواه الذى يضرب ويشفي، ويفعل كل ما يريد؟ قال الكاهن: هكذا كتب، حينئذ رفع يسوع يديه وقال: أيها الرب إلهنا، هذا هو إيماني الذي آتي به الى دينونتك شاهدا على كل من يؤمن بخلاف ذلك، ثم التفت إلى الشعب وقال: توبوا لأنكم تعرفون خطيئتكم من كل ما قال الكاهن، إنه مكتوب في سفر موسى عهد الله إلى الأبد. فإني بشر منظور، وكتلة من طين تمشي على الأرض، وفاني كسائر البشر، وأنه كان لي بداية، وسيكون لي نهاية واني لا أقدر أن أبتدع خلق ذبابة[٣٨].

ومن هذا النص يتضح لنا حجم الفتنة وموضوعها، والجهد الذى بذله عيسى في إبطالها، وقيمة الأدلة النقلية والعقلية التي قدمها في تفنيدها. ومما تجدر الاشارة إليه أن عيسى قد تنبأ أنه سيأتي من يثير هذه الفتنة مرة أخرى بعد رفعه، ويستغلها لاستبدال دينه، وكأنه كان يشير إلى بولس بالذات، فيقول: «.. عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة، بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله، فيتنجس بهذا كلامي وتعليمي، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا»[٣٩] ويقول: «يأتي عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو ما يحزنني، لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله تعالى، فيتسترون بدعوى إنجيلي»[٤٠].

ومن ينظر في سفر أعمال الرسل ورسائل بولس يتضح له بجلاء صدق ما رواه برنابا على لسان المسيح عن إثارة فتنة تأليهه من جديد وإبطال تعاليمه، فتلك الأسفار مملوءة بالنزاعات والمشاحنات بين بولس وبين أصحاب عيسى وتلاميذه حول ما أثاره بولس من تأليه عيسى وإبطال العمل بالناموس، وهذا هو مضمون نظرية الدوافع في تفسير تحول بولس.

واذا كان علينا الآن ان نقارن بين النظريتين، فإننا من منطلق نصوص المسيحيين أنفسهم وأقوالهم، وهو الإطار المنهجي الذي حاولنا الالتزام به في المقارنة، نستطيع القول:

١ ـ أنه ليس هناك ما يدعونا للتردد في ترجيح نظرية الدوافع في تفسير تحول بولس، حيث أنها على الأقل لا يرد عليها ما أوردناه من ملاحظات على النظرية الأخرى، كما

---

(٣٨) السابق ٩٤/٦ ـ ١٧، ٩٥/١ ـ ٢٠
(٣٩) السابق ٩٦/٩ ـ ١٠
(٤٠) السابق ٩٧/٩ ـ ١٠

أن النصوص والأحداث والنتائج تكتسب قدرا من الانسجام والتناسق المنطقي في تسلسلها، ويزول ما يبدو في سياقها من تنافر وتناقض، أو غموض أو نقص في التعليل، عند الأخذ بنظرية الدوافع وهو ما كان يعاني منه أصحاب النظرية الأخرى أنفسهم.

فإنه على الرغم من اختلاف النظريتين في تفسير تحول بولس، إلا أنهما يتفقان كما سبق أن قلنا في أمرين :

**الأول** : تحول بولس من يهودي فريسي متعصب ضد المسيح وأتباعه، إلى إعلان نفسه عبدا للمسيح ورسوله إلى العالمين.

**الأمر الثاني** : أن بولس أحدث بتحوله تغييرات عميقة، بل انقلابا في دين عيسى عليه السلام وبشر بإنجيل يختلف اختلافا جوهريا عن إنجيل عيسي نفسه.

ولكن على أي سلطان اعتمد بولس في هذا التغيير؟

هنا تفترق النظريتان :

فالنظرية الأولى تبرر هذا التغيير بسلطان المسيح نفسه، وبإلهامات أو بوحي منه لبولس، أما النظرية الأخرى فترى : أن التغيير تم بسلطان الهوى وبباعث خاص من بولس، وليس بإلهامات المسيح.

فاذا أخذنا بتفسير النظرية النفسية نقع في إشكالات وتناقضات لا يمكن تفسيرها، فأول ما يتعين عليهم تقديمه هو الدليل على صدق بولس في اتصال عيسى به، وتكليفه أن يكون رسولاً له إلى الأمم، وليس لديهم إلا ادعاء بولس أو شهادته الشخصية، ولا دليل لهم البتة خارج تلك الشهادة.

وهذه النقطة من الأمور الحاسمة - في نظري على الأقل - في ترجيح نظرية الدوافع واعتمادها في تفسير تحول بولس، فمن الواضح أن بولس إنما أعلن إلهية المسيح كمقدمة يعتمد عليها في إعلان نفسه رسولا عنه، فإنه عند التسليم بالإهية عيسى، وهو أمر قدر بولس بسهولة التسليم به في ضوء ما ذكرناه عن الفتنة الأولى التي حدثت وقت عيسى، وفي ضوء المعتقدات السائدة في تأليه البشر، فإنه يسهل التسليم بقبول رسالته. وهذا هو ما يفسر لنا بشكل مقبول مبادرة بولس في إعلان نفسه على أنه : «عبد ليسوع المسيح، المدعو رسولا، المفرز لإنجيل الله يسوع

المسيح ربنا الذى لأجل اسمه قبلنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان في جميع الأمم»[٤١] دون أن يكترث باليهود ولا بالمؤمنين من أتباع عيسى ولا بالمنطق الديني، وإنما كان ينظر إلى المستقبل، ينظر إلى روما التي كانت الهدف من إعلانه. فإعلانه إلهية المسيح يعتبر حجر الزاوية في تحقيق مشروعه، فهو الذي يدخله زمرة رسل المسيحية، لاغتيال دين عيسى وإعلان دين جديد باسم عيسى نفسه.

ولكن تظل مع ذلك الحقيقة التي لا يمكن لانتصار زيف بولس أن يخفيها أو يؤثر فيها، وهي أن كل هذا لا يعدو أنه ادعاء محض، لم يقم عليه دليل عقلي أو نقلي خارج ادعاء بولس نفسه، وتظل دعوى بولس على مر التاريخ حبيسة الدور المنطقي تدور حول نفسها، وليست إلا من باب الاستدلال بالدعوى على الدعوى نفسها، فإنه إذا كان لموسى ويشوع وأرميا وغيرهم من الأنبياء شهادات من الله على صدقهم وهي المعجزات والآيات التي أيدهم الله بها، ليثبت للناس صدقهم في دعواهم الرسالة، فما هي شهادة بولس على دعواه؟ ليس لديه إلا قوله : «الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي»[٤٢].

٢ - إذا جوز أصحاب النظرية الأولى لأنفسهم أخذ ادعاء بولس هذا مأخذ الجد، فبأى معيار يمكن لهم الجزم بصدقه وتفضيله على من يبشرون من رسل المسيحية بغير ما يبشر به؟! ومن جهة أخرى فإنه إذا كان أصحاب النظرية الأولى يعترفون صراحة بالتغييرات التي أحدثها بولس في دين عيسى عليه السلام في الوقت الذى يقرون ومعهم بولس بآيات عيسى ومعجزاته، فبأى منطق يمكن أن يفسروا أو يبرروا قبولهم نقض بولس دعوى عيسى المؤيد بالمعجزات والآيات، بدعواه التي ليس لديه دليل عليها إلا قوله فقط؟! إن أقل ما يمكن للعقل والمنطق الديني قبوله في صدق بولس هو موافقة أقواله وآرائه لأقوال من يتكلم باسمه ويبشر بدعوته، أما أنه لا دليل من معجزة أو آية أو توافق بين تعاليمه وتعاليم المسيح نفسه كما هو الحال في بولس، فإنه لا يمكن تصديق دعواه.

٣ - كذلك، فقد سبق أن أدرك معاصره هذه الحقيقه حتى وشاع تسميتهم له

---

(٤١) رومية ١/١

(٤٢) رومية ١/٩

بـ «المرتد»[٤٣]. ومن الثابت الذى لا يمارى فيه أحد : أن بولس بدأ دعوته مستقلا عن الحواريين، ولم يلتق بهم بعد تحوله إلا فترات قليلة كانت تنتهي بفراره خوفا على نفسه من بطشهم وكشف زيفه، فمن الثابت طبقا لرسائله نفسها أنه واصل طريقه بعد تحوله على طريق دمشق بإنجيله الجديد. وأنه لم يعد إلى القدس إلا بعد ثلاث سنوات، وحين عاد لم يمكث بالقدس أكثر من خمسة عشر يوما كانت حافلة بالخلاف والجدل والقلاقل، وأنه لم يجد من مجتمع الحواريين بالقدس إلا الصدود والحذر والشك والخوف من الفتنة التي أثارها بين الناس من جديد في شخص عيسى ورسالته، وما كان يدعو إليه خارج أورشليم من دعوى اتصال عيسى به وحيا أو الهاما، وتكليفه التبشير باسمه إلى جميع الأمم، وإبطال الختان بل وإبطال الناموس. ولولا برنابا الذى تشفع له ما قبل أحد من تلاميذ المسيح الالتقاء به. ومن يقرأ أعمال الرسل ورسائل بولس وعلى الأخص رسائله إلى أهل روما وكورنتوس وغلاطية، مهما بدا له اليوم من غموض تفاصيل الأحداث التي تتحدث عنها، فإنها تدل صراحة وفي وضوح تام على مقدار العداء والشك الذي كان يجابه به بولس من الحواريين واليهود معا، الذين لم يترددوا في الكشف عن أنه دعيّ مجدّف، وعن التناقض البين بين ما يدعو إليه وبين ما يعرفونه من تعاليم الكتاب والرسل، ويكفي لمن يبذل أدنى جهد في المقارنة بين العهد القديم والأناجيل الأربعة، وبين رسائل بولس، أن يدرك هذه الحقيقة بوضوح تام، بل إن بولس نفسه يوفر علينا هذا الجهد بإعلاناته وتصريحاته الحاسمة في هذه المسألة.

من هذه الإعلانات مثلا قوله : «لما سرّ الله الذى أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ لأبشر به بين الأمم للوقت، لم استشر لحما ودما ـ أى لم يستشر إنسانا ـ ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلي، بل انطلقت إلى العربية ثم رجعت أيضا الى دمشق، ثم بعد ثلاث سنين صعدت أورشليم لأتعرف ببطرس فمكثت عنده خمسة عشر يوما، ولكني لم أر غيره من الرسل الا يعقوب أخا للرب. . وبعد ذلك جئت إلى أقاليم سورية وكيليكية ولكنني كنت غير معروف بالوجه عند كنائس اليهود التي في المسيح. .

ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضا إلى أورشليم مع برنابا. . وعرضت عليهم

(٤٣) إظهار الحق ص٢٨٨ رحمة الله الهندي. تحقيق عمر الدسوقي ـ مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء.

الإنجيل الذى أكرز به بين الأمم، ولكن بالانفراد على المعتبرين. . ولكن بسبب الأخوة الكذبة المدخلين خفية الذين دخلوا اختلاسا ليتجسسوا حريتنا التي لنا في المسيح كي يستعبدونا الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة، ليبقى عندكم حق الانجيل.

أما المعتبرون أنهم شيء مهما كانوا لا فرق عندي، فإن هؤلاء المعتبرين لم يشيروا عليَّ بشيء، بل على العكس إذ رأوا أني أؤتمنت على إنجيل الغرلة كما بطرس على إنجيل الختان فإن الذى عمل في بطرس لرسالة الختان عمل في أيضا للأمم. . لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان. .[٤٤] ولكن لما أتي بطرس إلى انطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوما. . ورآءى معه باقي اليهود أيضا، حتى إن برنابا أيضا انقاد لريائهم، لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل[٤٥] قلت لبطرس قدام الجميع: إن كنت وأنت يهودي تعيش أمميا لا يهوديا، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا؟ نحن بالطبيعة يهود، ولسنا من الأمم خطاة، إذن نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح. . لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما. .[٤٦].

٤ ـ كذلك فإن السؤال الذى ما انفك يطرح نفسه والذى يظل دون جواب حتى الآن ولا يجد تفسيرا له في ظل النظرية النفسية في تحول بولس، هو: كيف ظل العهد القديم والأناجيل الأربعة من العهد الجديد كتابات مقدسة عند النصارى حتى الآن؟ ثم وبأي منطق يستطيع علم الكلام المسيحي التوفيق بين إعلانات كتبه المقدسة وبعضها يتناقض مع الآخر ويلغيه؟!

ليس من تعليل مقبول لعمل بولس هذا. إلا إذا أخذنا بتفسير نظرية الدوافع في تحول بولس في أنه كان على وعي كامل بأهدافه، ويعمل طبق خطة مسبقة في طمس دعوى عيسى كلية، ولعل قول بولس نفسه: «نحن نكرز بالمسيح مصلوبا، لليهود عثرة، ولليونانيين جهالة»[٤٧] يشف عن مضمون الإنجيل الذى بشر به.

---

(٤٤) واضح من هذا النص أنه يعني إذا كان الحواريون يلومونه على أقواله التي يخالف بها تعاليم المسيح، فيقول: إذا كنتم أخذتم عن المسيح، فأنا أيضا أخذت عنه، فلا فرق، ويعني هذا حمل الاختلاف والتناقض واللوم على المسيح وليس على بولس.

(٤٥) يقصد إنجيله الذى تلقاه عن المسيح.

(٤٦) غلاطية ١/١٥ ـ ٥٥، ٢/١ ـ ٦

(٤٧) كورنتوس الأولى ١/٢٣

٥ ـ ومما يدعم نظرية الدوافع لتحول بولس، ذلك الاستعلاء الصارخ الذى نلحظه في حديث بولس حين يقارن نفسه بأتباع عيسى عليه السلام، والإلحاح في إبراز تميزه عن الحواريين. فهو يعلن منذ الوهلة الأولى أن المسيح وحده، هو الذى نصبه رسول له بإرادته الخاصة، ويرفض أن يشكك أحد في هذا الاصطفاء والتميز. وهذه بعض تصريحاته التي تتسم بأكبر قدر من الاستعلاء والتأله، وتكشف عن كبر وعجرفة يهودي متعصب، والتي يقول فيها: «السلام بيدى أنا بولس»[٤٨] وحين يعلن في كبرياء: «نتكلم بحكمة الله في سر الحكمة المكتوبة التي سبق الله تعيينها قبل الدهور لمجدنا»[٤٩].

وحين يقارن نفسه بالحواريين: «أهم عبرانيون؟ فأنا أيضا. أهم إسرائيليون؟ فأنا أيضا. أهم خدام المسيح؟ أقول: فأنا أفضل»[٥٠] لماذا لأني: «رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح الذى بذل نفسه لأجل خطايانا»[٥١]، «يسوع المسيح الذى به قد صلب العالم لي وأنا للعالم.. لا يجلب أحد عليّ أتعابا لأني حامل في جسدي سمات الرب يسوع»[٥٢] «مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء»[٥٣].

٦ ـ كذلك فإن نظرية الدوافع هي وحدها التي يمكن أن تبدد دهشة أصحاب النظرية الأولى، وتفسر لنا كيف أن بولس الذى أقام إنجيله على هدم الناموس الذى أنزل على موسى، ظل مع ذلك وبعد تحوله، يهوديا مفعما بعاطفة متأججة وتحنن زائد لبني جنسه، ولم ينس لحظة واحدة أنه يهودي فريسي له هدف يعمل من أجله، وهو الانتصار على المسيح بالمسيح نفسه، وأقواله التي تتضمنها رسائله كلها إعلانات واضحة لمن يقرأها قراءة جيدة وصحيحة، عن تلك الحقيقة، ففي رسالته لأهل غلاطية يعلن لهم بوضوح براءة اليهود من الخطايا، فيقول: «نحن بالطبيعة يهود ولسنا من الأمم خطاة»[٥٤] وفي رسالته لأهل روما يقول: «.. إخوتي الذين هم

(٤٨) كورنتوس الأولى ١٦/٢١
(٤٩) كورنتوس الثانية ٢/٧
(٥٠) كورنتوس الثانية ١١/١٨
(٥١) غلاطية ١/٥
(٥٢) غلاطية ٦/١٤، ١٧
(٥٣) كورنتوس الأولى ١/٩
(٥٤) ٢/١٥

إسرائيليون ولهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد، ولهم الآباء، ومنهم المسيح، حسب الجسد الكائن على الكل، إلها مباركا إلى الأبد. آمين»(٥٥).

٧ ـ وليس هناك أدل من تبريره العجيب لموقف اليهود من المسيح، على ولائه الحقيقي لجنسه ولأهدافه معا، حين يبرر عمل اليهود باعتباره تجسيدا لإرادة إلهية في أن التبرير لا يكون بالناموس، وإنما بنعمة الله ومشيئته: «لكي يبين غنى مجده على أن رحمته قد سبق فأعدها للمجد»(٥٦) فكان ما فعله اليهود بالمسيح سببا أراده الله لإيمان الأمم، ولهذا لم يرفض الله شعبه المختار من أجل ما فعله بالمسيح: «فأقول ألعل الله رفض شعبه؟ حاشا لأني أنا أيضا اسرائيلي من نسل إبراهيم سبط بنيامين، لم يرفض الله شعبه الذى سبق فعرفه.. فأقول: ألعلهم عثروا لكى يسقطوا؟ حاشا بل بزلتهم صار الخلاف للأمم.. فإن كانت زلتهم غنى للعالم ونقصانهم غنى للأمم فكم بالحري ملؤهم»(٥٧).

«فهم أحباء من أجل الآباء، لأنه هيهات الله ودعوته هي بلا ندامة»(٥٨).

فخطاياهم في نظر بولس خطايا سامية وجليلة، لأنها أعطت الله الفرصة الذهبية التي انتهزها ليبرهن بها على عدالته في القصاص من خطيئة آدم من جهة، وصلاح الله ومحبته ورحمته التي تحنن بدم ابنه الوحيد لمحو خطايا البشر من ناحية أخرى. ثم لاثبات حرية الله المطلقة في الاختيار. لهذا، كان: «فضل اليهود كثير على الكل: أما أولا فلأنهم استئمنوا على أقوال الله، فماذا إن كان قوم لم يكونوا أمناء! أفلعدم أمانتهم يبطل أمانة الله؟! حاشا، بل ليكن الله صادقا وكل إنسان كاذبا فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبي لمجده فلماذا أدان أنا بعد كخاطيء»؟(٥٩)، «لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال برّ بل من الذي يدعو ـ كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو»(٦٠).

ويتضح من هذه النصوص وغيرها، مما تتضمنه رسائل بولس في هذا المجال،

---

(٥٥) ٩/٣ ـ ٥
(٥٦) رومية ٩/١٨
(٥٧) رومية ١١/١ ـ ١٢
(٥٨) رومية ١١/٣٠
(٥٩) رومية ٣/١ ـ ٤
(٦٠) رومية ٩/١١ ـ ١٢

إصرار بولس على إعفاء اليهود من مسئولية ما وقع منهم في حق المسيح ورسالته من جهة، وإلغاء مسئولية الإنسان الأخلاقية والدينية أمام الله من جهة أخرى، فما الإنسان إلا آلة يستخدمها الله في إنفاذ إرادته الإلهية، ولعل هذا هو أحد الأغراض الرئيسة في إنجيل بولس. كما يتضح منها لماذا ظل بولس بعد تحوله، على ولائه القديم لعقيدته وانتماءاته ومقدار السفسطة والتضليل والرياء الممقوت في تبرير خطايا اليهود بكمال الله ومجده، فما صنعه اليهود ليس إلا الوسيلة التي استعملها الله لتحرير البشرية من خطاياهم، فأحرى بالعالم أن يشكر لهم صنيعهم ويقر بفضلهم، ولا يحق لكائن من كان الافتخار على اليهود، أو ينظر إليهم كخطاة بقتل المسيح الذى كان من أجل تكفير خطايا البشر، فهم الأصل الذى انبثق عنهم المسيح وما فيه الأمم من خير انما هو بدم المسيح، فلهم الفضل والمنة.

ولا شك أنه في ضوء النظرية النفسية يصعب تبرير هذا التناقض الواضح في موقف بولس وآرائه من اليهود الذين يرفضون المسيح ويتمسكون بالناموس، وموقفه هو في جعل الإيمان بالمسيح المصلوب يعني الإيمان بإبطال الناموس.

أما في ظل نظرية الدوافع فالأمر لا يحتاج جهدا في التفسير، ولا تناقضا في موقف بولس، بل إن موقفه يكون أدعى للتناسق المنطقي مع دلالة النصوص والوقائع وإزالة ما فيها من غموض واضطراب، واكتسابها قدرا من التماسك والانسجام في ترتيب المقدمات والنتائج وتفسير الأحداث بشكل منطقي.. إلى غير ذلك من الإشكالات والملاحظات التي أشرنا إليها في التعقيب على النظرية النفسية، وينسجم مع ملاحظة رينان في تحول بولس حين أدرك: «أن بولس لم يغير سوى موضع تعصبه»[٦١] وأن تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي قدمها بولس كانت السبب في تشويه وجه التعليم المسيحي، وأن بولس على الأقل لم يفهم تلك التعاليم فاستبدلها بتعليم آخر.[٦٢].

وننتهي من هذا كله إلى أن بولس كان يعمل طبقا لخطة مسبقة لبلوغ هدف معين، وأن تحوله الإعجازى هذا، لم يكن في الواقع إلا جزءا من هذه الخطة، وكان المعنى الضمني لهذا التحول هو ما أراده بولس من التفرقة بين المسيحية التي أسسها

---

(٦١) المسيحية ص١٠٠

(٦٢) انظر رأي رينان نقلا عن العلمانية ص٤٢،سفر بن عبد الرحمن الحوالي ـ السلفية للنشر والتوزيع الكويت ١٩٨٧م.

وبين الدين الذي آمن به الحواريون، ودفع الأولى أن تصبح دينا متميزا عن دين موسى وعيسى معا، وصارت هذه النتيجة أمرا محتما بفضل نظريات بولس وجهاد أتباعه في حمل أباطرة الروم على اعتناقها، لتصبح دينا عالميا يتخذ من المسيح إلها خاصاً بها، ليس له من المسيح إلا اسمه، يقوم على عقيدة تأليه عيسى وصلبه تكفيرا عن خطيئة البشر، وتلتف حولها مجموعة من العقائد والطقوس والأساطير بالغة التعقيد والاستغلاق على الأفهام تعتمد في جملتها على مركز تدور حوله شخصية ابتدعها بولس ابتداعا وسماها «المسيح المصلوب».

ولكن مع كل ذلك فإنه يبقى علينا الإجابة عن سؤال لابد منه : وهو كيف استطاعت هذه التعاليم، التي تتحدى كل منطق ديني وأخلاقي وفكري، أن تنتصر لتصبح دينا عالميا؟!

## - ٤ -
# عوامـــل الانتصـــار

إذا كانت البذور مهما كان نوعها لابد لها من تربة مناسبة حتى تنمو، فإن أفكار بولس مهما بلغ دهاؤه وعبقريته ما كان لها أن تنتشر لولا أن مسرح الحياة للامبراطورية الرومانية بأبعاده المختلفة كان جاهزا لإخراجها، والجمهور مهيئاً لاستقبالها بفضل العوامل التالية :

**١ ـ المعتقدات السائدة :**

فيمكن القول: إن الامبراطورية الرومانية وقت بولس كانت من حيث نظمها التشريعية والاجتماعية والسياسية نظما علمانية تستند في جملتها على أصول فلسفية وفكرية، أما حاجتها الدينية فقد اعتمدت في إشباعها على أوشاب الديانات والأساطير الشرقية، فهي وإن كانت قد غزت العالم وسيطرت على الشرق بقوتها العسكرية والسياسية إلا أنها تركت نفسها باختيارها لتغزوها أديان الشرق، فلم تكن سيادتها على الشرق تعني سيادتها الدينية كما هو المعتاد، بل كان الأمر على خلاف العادة: حيث سادت عقائد الشرق المهزوم روما المنتصرة، وجاءت «المسيحية البولستية» اضطرادا لهذه الظاهرة، وحيث جاءت النحل الشرقية مواتية للقيصر والشعب في آن واحد، فقد كان القياصرة يسرهم أن يكونوا آلهة حين كانوا يسمعون أن كهان المعابد الشرقية يعلنون حلول الآلهة في أجسام الملوك، ولم يزل إعلان الإسكندر ابنا لإله آمون خبرا يتناقله الناس بفخر، ويرنو إليه خلفاؤه من القياصرة، ولم يزل الشرق منذ القدم في عيون الغرب مهبط الأسرار العلوية والأخبار السماوية، ولا زال السحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم، فلا عجب أن يؤخذ الغرب بهذا السحر، ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها ما دامت الأرض في أيديهم، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء[٦٣].

وهكذا فقد كانت الحياة الدينية للأمبراطورية على اتساعها تعج بأصوات آلهة متعددة وعقائد متداخلة ومختلفة، وأساطير وخرافات لها سلطان على النفوس أقوى

---

(٦٣) انظر حياة المسيح ص٧٧ ـ ٧٩

من سلطان الحقائق، تدور كلها حول عقيدة في تأليه البشر أو بشرية الآلهة، فقد كانوا ينظرون للأفذاذ باعتبارهم آلهة أو أبناء آلهة، فأفلاطون حملت به أمه العذراء من صلب الإله «أبولو» لا من صلب آرستن الذى كانت على وشك أن تزف إليه، والإسكندر المقدوني ولدته أمه في منفاها من الإله «زيوس»، وفيثاغورس حملت به أمه من روح الإله «أبولو»، وعبده قومه بوصفه ابن الله، والقار قليط معبود فارس كان روحا في السماء قبل أن يولد على الأرض.

كما كانت عقيدة التثليث المزاج الأدبي في العقائد السائدة :
فالثالوث المصري كان له شيوعه الأدبي ورمزه الديني في أجواء المنطقة، أوزيريس الأب، وأيزيس الأم، وحورس الابن أساسا في لاهوت عين شمس. والثالوث الهندي : كرشنا، كوسي، كوست. والثالوث الفلسفي لأفلاطون : الله ـ الروح الكلمة. وكانت في روما التي استقر فيها بولس مبشرا بالمسيح ابن الله الوحيد مسلة مكتوب عليها بالاغريقية «الإله الأعظم ابن الله».

أما صلب الآلهة فكان هو الأسطورة التي تستلذها الأسماع وترددها الألسن وتقام لها الاحتفالات تمجيدا لذكرى الذين استشهدوا منهم من أجل البشر : في الهند حيث صلب كرشنا سنة ١٢٠٠ق م وبوذا الذى صلب ٦٠٠ ق م وكان يصفه أتباعه بـ «مخلص العالم وينبوع الحياة ونورها». وفي فارس حيث صلب «مترا» ٦٠٠ق م، وفي المكسيك حيث صلب «كوجزلكوت» ٥٨٧ق م، والذي يقال: إنه رؤي مصلوبا في السماء بين لصين على صليب خشبي كما تروي الأناجيل عن المسيح، وفي القوفاز حيث صلب «برمثيوس» ٥٤٧ق م، وروما حيث صلب «كريتوس» ٥٠٦ق م، والذي قيل، إنه قام بعد دفنه مع الأموات[٦٤].

أما عقيدة موت الآلهة وقيامتهم فكان لها الصدارة على مسرح الحياة الدينية خلال عصر بولس والتي كانت بينها أوجه شبه تكاد توحد بينها.

فأنيس في بلاد الفريجيين، وأودينس في الشام، وأوزوريس في مصر، وبترا في فارس، وقد كان له شهرة في الإمبراطورية الرومانية، وكانت طرسوس التي كانت مسقط رأس بولس، تمر بها كل تلك الآلهة الشهداء الذين قاموا من الأموات، ويتم

(٦٤) انظر المسيح في مفهوم معاصر ٦٦ ـ ٧٠ ـ عصام الدين حفني ناصف ـ دار الطليعة بيروت.

فيها تبادل العقائد والأساطير والطقوس والشعائر لتلك الآلهة، مع تبادل السلع والبضائع، ورغم ما بين هذه المعتقدات من فروق شكلية الا أنها كانت تشترك في عقيدة موت الآلهة وقيامتهم في مواسم معينة، من أجل الخلاص، وتجديد الحياة لأتباعهم، وكذلك الإحساس الجارف الذى يمتلك مشاعر المؤمنين بتلك الآلهة، وهو شعور الحزن والفرح الدوري بموت الإله وبعثه من جديد، ولم تكن تلك الآلهة إلا من صنع أحلام البشر وآلامهم، وتجسيدا لقيمهم ومثلهم وأحلامهم وآمالهم وآلامهم، ومرايا ينظرون فيها ظاهرة الموت والحياة في نفوسهم وفي الطبيعة التي تحيط بهم، وملاذا للخلاص والنجاة من محن الحياة وقسوتها، فلا جرم أن كانت أنساب تلك الآلهة تعود غالبا الى الكائنات والظواهر الطبيعية والأرواح التي تؤثر في حياة الناس: مثل الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والماء، والريح، والفصول، والمواسم، والحيوانات، والزروع، والثمار، والأبرار والأشرار من البشر.

ولا عجب إذن أن ترى ميلاد المسيح بعد أن ألحقه بولس بنادي هذه الآلهة يخرج من التاريخ العبري، ليتفق ميلاده مع ميلادهم، وهو ٢٥ ديسمبر موعد الانقلاب الشتوي في كل عام [٦٥].

أما الصورة التي تستحق أن نقف عندها، والتي لا شك أن بولس قد استفاد منها، فكانت صورة موت الإله وبعثه والطقوس والشعائر التي تقام في تلك المناسبة، حيث ترسم الأسطورة إلها يتعذب تماما كما يتعذب البشر، ثم يموت ملطخا بدمائه من العذاب، ولكنه يتغلب على الموت فيقوم ليجدد الأمل في الخلاص والحياة لاتباعه من جديد، ويمثل أتباعه هذه المأساة كل عام في احتفال سنوي مهيب، مع إيمانهم أن هذا الموت لا يؤثر في خلود آلهتهم أو سعادتهم الأبدية، فما موت الإله وحياته الا تعبيرا عن حبه وعطفه وطريقة يعبر بها عن مشاركته المؤمنين به محن الحياة وقسوتها ومساعدتهم في التغلب عليها ووعد لهم بالنجاة والخلاص إن أخلصوا في تقديم القرابين وإقامة الطقوس والشعائر الكهنوتية، ليتم خلاصهم بالتوحُّد بالإله أو حلوله فيهم، ليشاركوه حياة الأبدية والسعادة.

---

(٦٥) انظر المسيحية ص٧٤ ـ ٧٥، وتاريخ بابل ص١٨٥ مارغريت روثن ـ ترجمة زينة عازار وميشال فاضل، منشورات عويدان ط.٢ ١٩٨٤م.

وقد وصف لنا «مرتبلوس مارنيوس» وهو من كتاب القرن الرابع، أحد هذه الاحتفالات التي كانت تقام لمثل هؤلاء المنقذين، حيث يبدأ الناس يبكون آلام الاله الذي يتعذب من أجلهم، ويتملكهم الرعب من المصير المجهول الذى ينتظرهم في المستقبل اللانهائي من موته، ثم يمر الكاهن على الحاضرين، ويلمس صدر كل واحد منهم حسب شعائر وطقوس معينة، ويهمس إليه في بطء بالكلمات القدسية التالية :

«لتعد الثقة إلى نفسك، فقد نجا الإله، ولسوف تصل الآن أنت أيضا إلى النجاة في نهاية طريق الآلام»[٦٦].

ومما يستحق الانتباه هنا أن شعيرة التعميد وتأدية القربان في المسيحية كان لها نظير في الشعائر الرئيسة في عبادة الوثنيين، بدأت بدم الاله نفسه للتعميد، وجسده للتناول، ثم استبدلت بابنه، ثم بحيوان حلت فيه روحه، إلى أن انتهت بالخبز والماء، أو الخمر، كتعبير رمزي عن دم الإله وجسده، وكتعبير عن التوحد بالإله ذاتا ومصيرا، وكانت الطقوس والشعائر التي تؤدي في إقامة هذه الشعيرة بمثابة تصوير رمزي للمصير الإنساني والخلاص بواسطة دم هذا الإله المتجسد وجسده، الذي كان الاعتقاد فيه أنه يمثل الواسطة أو الشفيع عند أبيه الإله الأعظم، أب كل الآلهة.[٦٧]

وكان أكثر ما أعجب به الرومان من تلك النحل: نحلة «مترا» الفارسية و «إيزيس» المصرية، التي ترمز إلى الأمومة وكان عبادها من الرومان يرسمون لها صورا جميلة تنم عن الطهارة والحنان، وفي حضنها طفلها الرضيع يشع النور من وجهه رمزاً للأمومة والبر والبراءة. وشاعت عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة، وتقديس حقوق الآباء[٦٨]، وهذا ما جعل فكرة بولس في التبني مفهومة لليونانيين، وسهل على العالم الغربي قبول فكرة بنوة المسيح لله بالمعنى الطبيعي للبنوة، ولكي نفهم مغزي قبولهم لهذه الفكرة علينا أن ندرك الخطوات المعقدة التي كان على الروماني أن يؤديها في سبيل التبني، والتي كانت تعطي الأب سلطة مطلقة على بنيه تجعل الابن لايخرج من وصاية أبيه مهما بلغ من العمر، فكان التبني يتم بطقوس

---

(٦٦) انظر المسيحية ص٧٤ ـ ٧٥
(٦٧) انظر : المسيحية في مفهوم معاصر ص٨٩ ـ ٩٠
(٦٨) حياة المسيح ص٧٨

معقدة تبدأ بعملية بيع وشراء رمزية بين الأب الطبيعي والأب الجديد ثلاث مرات، بعدها يتم التوثيق القانوني أمام الحاكم الروماني ليصبح للأب الجديد كل حقوق الأب الطبيعي، وتنتهي كل صلة للابن المتبني بحياته السابقة، وكأنه ولد من جديد، فكانت هذه الصورة الرومانية واضحة تماما لذهن بولس حين طبقها على المسيح، ليضمن قبولها وانتشارها، فزعم لهم أن الإنسان كان قبل المسيح تحت وصاية طبيعته الأرضية بسبب خطيئة أبيه الطبيعي آدم، ولكن الله حين أراد أن يتبناه بذل برحمته دم ابنه المسيح ثمنا لتبريره ونقله إلى وصايته، فلم يعد للحياة القديمة أي سلطان عليه، وشطب الماضي وانتهي بكل دينونته وآثامه، وهكذا يعرض بولس يعرض على الروماوني أبوة الله على مثاله في نظام التبني، واعدا إياه بدخول عائلة الله عندما يصير مسيحيا، دون أن يفعل شيئا لكسب هذا الامتياز، فقد تكفل الله بالبيع والشراء ودفع دم ابنه الوحيد من أجل الخلاص(٦٩).

وكانت هناك أيضا تلك الديانة التي يمكن اعتبارها ديانة خاصة باليونانيين لما تعكسه من مزاجهم الفلسفي والأدبي، وهي الديانة المعروفة بالأورفية التي كانت تأخذ طابعا فنيا والتي ربما كان لها تأثير في تقديم الترانيم والأناشيد في الكنائس، وقد قيل في وصف صاحبها «أورفيوس»: إنه كان يعزف على أوتاره، فيقبل الوحش والنعم والطير للاستماع إليه، وقد نسيت عداوتها، وأنه كان يزور عالم الموتى ويعود منه، وجعلوا له موعدا يحزنون فيه على موته، وآخر يحتفلون فيه ببعثه، وكذلك ديانتهم التي تعرف «بالغنوصية» (الفيض الإلهي)، وهي ديانة سرية صوفية ساعدت على قبول اليونانيين لما في إنجيل بولس من غموض وأسرار باطنية وتركيبات متناقضة كان لها مذاق خاص استلذته العقلية الغربية النازعة إلى الإغراب الفلسفي والتركيب الجدلي، تعد معتنقيها بالحرية من الهموم والأحزان والمخاوف الأرضية، وتتم هذه الحرية باتحاد المؤمن عن طريق طقوس معينة بأحد الآلهة، وكانت قصص الديانات عن إله يتألم حتى الموت ثم يقوم، لها انعكاسها في الأدب والمسرح الروماني، حيث يمثلون هذه المأساة على صورة شخص يأتون به ويسمونه «المائت»، ثم يقومون بدفنه في خندق تعبيرا عن خلاصه من حياته السابقة وما فيها من آلام وآثام، ثم يقوم من الخندق ويخاطبونه على أنه طفل جديد، ويسقونه اللبن ثم يصلي في مناجاة للرب قائلا : «ادخل إلى روحي وفكري وكل حياتي، لأنك أنت أنا وأنا

(٦٩) انظر تفسير العهد الجديد - رسالة رومية - ص١٢٤ - ١٢٥ وليم باركلي.

أنت»، ومن هنا فكل الذين سمعوا ما قاله بولس في موت المسيح وقيامه، وتكفير الخطايا والولادة الإلهية، وغير ذلك، أدركوا في سهولة مقصده تماما من الموت والحياة والقيامة بواسطة المعمودية متحدا بالمسيح . .[٧٠].

تلك هي المعتقدات والأساطير التي كانت تزخر بها الحياة الدينية للإمبراطورية الرومانية في عصر بولس والتي استخدمها بمهارة لاشك فيها في رسم صورة المسيح الجديد ليمحو بها كل أثر للصورة الحقيقية لعيسى عليه السلام، وكانت في نفس الوقت من العوامل الهامة التي ساعدت على تقبل تلك الصورة التي رسمها بولس بل واستحسانها لدى الرومانيين بصفة خاصة.

## ٢ ـ الحالة السياسية والاجتماعية :

كذلك من العوامل التي ساعدت على تقبل آراء بولس وانتشارها: الحالة السياسية والاجتماعية للإمبراطورية الرومانية حيث كانت تعيش إحدى فترات التاريخ التي لا يعرف فيها الناس كيف يعيشون، ولماذا يعيشون، وهي تلك الفترات التي تتوسط عهدين تسود كل منهما مباديء غير التي تسود العهد الآخر، حيث كانت تعيش روما عهد أفول أمجادها الفلسفية والتشريعية والحضارية والثقافية، وتشهد بزوغ فجر عالم جديد، تتعدد فيه مراكز القوي وتنشأ فيه القوميات العرقية، وتهب عليها رياح رسالة سماوية جديدة من أورشليم، تزاحم سيادتها الثقافية والحضارية، وتهدد سيادتها على المستعمرات في أطراف الامبراطورية ونواحيها. وعندما يكتب المؤرخ «ناسيونوس» عن هذه الحقبة يقول : (إني أسجل تاريخ حقبة عامرة بالمصائب، حزينة بالحرب، ممزقة بالتحريض على الفتنة، متوحشة حتى في وقت السلم، الكل في رعب وكراهية، يرتشي العبيد ليخونوا ساداتهم، والأصدقاء ليغدروا بأصدقائهم، والذى ليس له أعداء هدمه أصدقاؤه). ويصف المؤرخ «ليفي» حال روما في ذلك العصر قائلا : (لم تكن روما تحتمل أمراضها، ولا حتى الأدوية المقدمة لعلاجها).

أما الشاعر «بربرنيوس» فيقول : (إني أرى روما المتكبرة تهلك ضحية

---

(٧٠) تفسير العهد الجديد ـ رومية ص١٠١ ـ وليم باركلي ـ ادوارد وديع عبد المسيح دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة، وانظر حياة المسيح ص٨١

نجاحها)، وهو عصر انحطاط أخلاقي كما يراه الكاتب «جوفينال» : (لم تعد الأرض تنجب غير الأردياء والأرذال والجبناء، والله مهما كان شخصه، ينظر الى أسفل ساخرا من الناس الذين يكرههم). وكان عصر الفخفخة التي تؤذي أكثر من الحرب، فخفخة تحوم حول روما لا ينقصها شر أو شهوة ما دام الفقر قد فارقها، كما كان عصر الفاقة التي تدعو إلى القنوط واليأس من الحياة. فكل أحد، كما يقول «سنكا» الذى كان معاصرا لبولس : (لا يسأل عن صحة الشيء وإنما عن كم يكلف؟) قد ملّ الأغنياء والفقراء حياتهم؛ الأغنياء ملّوا اللذائذ العادية فمضوا يفتشون عن كل ما هو غريب، ولا يجدون لذتهم إلّا في الجريمة، أو في المخادع، أو في أنين الموتي من الجوع، والفقراء ملّوا حياتهم لرخص أثمانها، وأصبح الحال كما يقول «ناسينوس» : (كلما زاد خزيا زاد السرور)، أو كما يصفه «سنكا» : (مضروب بالفوضى، ولم تعد روحه تدرك نفسها)[٧١].

كما كان عصر الانحطاط الديني حيث كانت عبادة قيصر هي الدين الرسمي للامبراطورية : وفحواها أن قيصر تجسيد لروح روما وهي روح إلهية، وكان على كل مواطن أن يحرق البخور كل عام للإمبراطور قائلا؛ «القيصر هو الرب» وبعد ذلك فله الحرية في أن يكون له دينه وإلهه الخاص، ما دام ذلك لا يتعارض مع الولاء للقيصر.

والخلاصة : أن الامبراطورية كانت تعاني استهلاكا سريعا في قوتها المعنوية والمادية، وتجتاحها رغبة عامة في الخلاص مما تعانيه من آلام التمزق الاجتماعي بين حالة الترف والثروة والكسل والبطر في جانب، والفقر والجهد والوهن والقهر في جانب آخر، وصدق عليها قول الشاعر «فرجيل» : (إنه عصر السائق، يترك الخيول تجره، والمركب لا تلتفت لتوجيه المدبر).[٧٢] وعصر هذا شأنه لا يملك المقدرة أو الإرادة على انتقاء أو اختيار ما ينثر في تربته من بذور.

### ٣ - يهـود الشتـات :

كذلك فان يهود الشتات كانوا من العوامل الهامة في الترويج لتعاليم بولس، ربما لأنهم صنعوها، أو لأنها كانت على الأقل تحقق أهدافهم ومصالحهم، ولم تكن

---

(٧١) انظر ص٤٥ تفسير العهد الجديد رسالة رومية.

(٧٢) السابق ص٤٥

أورشليم عاصمة اليهود فقط بل عاصمة لها تأثيرها في معظم أقطار حوض البحر الأبيض المتوسط، وبلاد ما بين النهرين، على أساس التغلغل الكبير من اليهود المنتشرين في معظم أقطار العالم القديم، حتى إنه كان يخيل للعالم الجغرافي اليوناني: «سترابو»: (أنه لا يخلو مكان في العالم من سكنى اليهود أو سيطرتهم.) وكما يقول المؤرخ اليهودي «يوسيفوس»: (لا يمكن أن تجد مدينة أو قبيلة سواء كانت يونانية أو بربرية لم تتغلغل فيها العادات اليهودية أو الناموس اليهودي). وفي نبؤات الرومان القديمة المكتوبة حوالي ١٤٠ق.م ذكر أن اليهود منتشرون في كل أرض وفي كل جزيرة.

وظل اليهود على الدوام مختلفين في كل شيء، إلاّ في شيء واحد يعتبر حجر الزاوية في الفكر اليهودي كله، وهو فكرة «المسيح المنتظر» الذي يعطيهم بقوته الإلهية حقهم الطبيعي في السيادة على العالم، فلم ينس اليهود يوما أنهم شعب الله المختار، وأن هذا الاختيار الإلهي يضعهم على رأس أمم العالم، وكانوا يعتقدون أنه سيجيء من نسل داوود من يوحد أمتهم ويقودهم إلى العظمة.

ولكن تاريخ اليهود كان على الدوام مخيبا لآمالهم، فبعد سليمان انقسم ملكه بين ولديه «رحبعام، ويربعام» إلى مملكة في الشمال وأخرى في الجنوب، ثم اختفت المملكة الشمالية ـ وعاصمتها السامرة ـ أواخر القرن الثامن ق.م، بأسباطها العشرة، بفعل أشور، وأما المملكة الجنوبية وعاصمتها أورشليم، فقد وقعت تحت حكم الفرس، ثم اليونان، ثم الرومان. فكان تاريخ اليهود سلسلة متصلة من المآسي والمحن، لم يستطع منقذ بشري أن ينقذهم منها.

ومع ذلك ظل العقل اليهودي تسيطر عليه فكرة اختيار الله لهم، وكان عليهم أن يوفقوا بين الحلم والواقع بفكرة ابتدعوها في تقسيم الزمن كله الى عصرين أو دهرين:

الدهر الحاضر: وهو دهر شرير، لا يصلح ولا يغني، ونهايته الخراب.

والدهر الآتي، وهو دهر ذهبي وصالح يسود فيه السلام والخير، وفيه ينال شعب الله مكانهم اللائق بهم وحقوقهم الإلهية.

ولكن السؤال الذي كان على الفكر اليهودي أن يجد له حلا هو: كيف يتحول الدهر الحاضر ليصير الدهر الآتي؟ هنا تظهر فكرة التحول، ليس بواسطة بشرية، بل

بتدخل مباشر من الله الذى ينزل إلى مجريات التاريخ لينهي بنفسه الدهر الحاضر الشرير، ويجيء بالدهر الذهبي السعيد، وهذا التدخل التاريخي يتم في يوم سمّوه «يوم الرب»، وهو يوم مهيب ومخيف، فيه قضاء وإدانة، ويتم فيه ميلاد الدهر الآتي أوالذهبي. وكل الأدب الإعلاني لليهود يتكلم عن هذه الأحداث، فيحكي عن الشرور الحاضرة، ثم الرعب الذي يعقبه التغير المبارك، ويحتوي على رؤي وأحلام بأسلوب رمزي، وكتابات تسترية، تستعمل لغة الرمز والصورة، لأنه يحاول أن يحكي شيئا لم تره عيونهم بعد، ولم تسمعه آذانهم، ولم يخطر على بالهم.[٧٣].

وهكذا كان انتشار اليهود على رقعة واسعة من الإمبراطورية الرومانية بأحلامهم وآمالهم في يوم الخلاص على يد المسيح المنتظر، أحد العوامل التي ساعدت على انتشار «المسيحية البولستية» ـ إن جاز لنا هذا التعبير ـ والتي تقوم على فكرة الخلاص بدم المسيح المصلوب، وهي وإن كانت لا تتوافق في جوهرها مع تصور اليهود في المسيح المنتظر، إلا أنهم اعتبروها فرصة سانحة استغلوها لتحقيق حلمهم الدائم في إقامة ملك إسرائيل على أنقاض روما الباغية.

## ٤ ـ فكـــرة الخـــلاص :

ها نحن نرى أن الكل كان يركض بحثا عن الخلاص، وكانت تلك الرغبة العارمة هي الفرصة التي انتهزها بولس، ليضع على طريق الباحثين، الأسهم المناسبة التي ترسم خطوط السير لهم إلى الخلاص كما يريده، في وقت كان يقول عنه الفيلسوف «سنيكا» : «كل الناس تتوقع الخلاص، ولكنها تحتاج إلى يد ترفعها إلى أعلى، لأن الناس يشعرون بضعفهم وعدم كفايتهم في الأمور الهامة»، وكما يقول معاصره الفيلسوف «أبكتيوس» : (إن الناس يبحثون عن الخلاص لا بإعلان قيصر بل من الله)[٧٤]. فلما جاء بولس بفكرته في الخلاص تلقفها الناس دون تمحيص إلا الرغبة الجارفة في النجاة، وتعلقوا بها تعلق الغريق بالقشة.

ولكن ما معنى الخلاص الذي قدمه بولس؟ إنه خلاص أشبه بمن يمد يده إلى من أنهكه الجوع والمرض والعري، ولا يجد مكانا يأوي إليه، بصكوك الدين عليه.

---

(٧٣) انظر ص١٠ ـ ١١ تفسير العهد الجديد ـ سفر الرؤيا ـ وليم باركلي، ترجمة منير عبد النور ـ دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة

(٧٤) السابق : ٣٣

هذا هو مضمون الخلاص الذي قدمه بولس للعالم يلخصه في كلمة واحدة : «المسيح مات من أجل خطايانا»(٧٥).

فإذا كان لنا أن نخرج بشيء من «إنجيل بولس» نعتمد عليه في تحديد خطته وأهدافه، من فكرته في الخلاص، فإننا نستطيع أن نقول بثقة تامة : إن بولس الذى أدرك بنظر ثاقب نقائص الإنسان وتطلعاته، قدم للعالم خلاصا يقوم على دعامتين :

**الأولى** : إلغاء دور الوحي في شئون البشر. وذلك باسقاط التزام الانسان بالإرادة الإلهية، وإطلاق حريته الفوضوية في اشباع غرائزه، وهذه نغمة رئيسة في إنجيل بولس، وحجر الزاوية في مشروعه للخلاص الذى لا يتم - كما يرى - إلا على حساب الناموس.

فالإنسان المبرر عند بولس، هو ذلك الذى يؤمن بأن صلته بالله تتم، ليس لأنه يعمل بحسب الناموس، ولكن لأنه ألقى عن كاهله عبء ذلك الناموس، ليطرح نفسه بثقة كاملة في أحضان رحمة الله المذهلة، متقيا غضب الله بمحبته العجيبة، ولكن ما الذي يعنيه بولس بالغضب؟ الغضب الذى يعنيه هو العمل بالناموس.

وليس لدينا ما نقدمه، أفضل من نصوص بولس، في تصوير هذه الأعجوبة، وهو يعرضها على نحو فيه إغراء وغواية، وتحريض لغرائز الإنسان على روحه، فيعلن أنه :

«بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما»(٧٦)، و «لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب، أو جهة، أو عيد، أو هلال، أو سبت»(٧٧)، ولأهل رومية يقول : «ليس شيء نجسا بذاته، إلا من يحسب شيئا نجسا فله هو نجس»(٧٨)، ولأهل كورنثوس : «كونوا بلا عثرة، كما أنا أيضا أرضي الجميع في كل شيء»(٧٩)، «لأنه إن كان بالناموس

---

(٧٥) كورنثوس : ١٥/٣
(٧٦) غلاطية : ٢/١٦
(٧٧) كولوس : ٢/١٦ ويعني بالجهة القبلة.
(٧٨) ١٤/١٤
(٧٩) ١٠/٢٢

برّ، فالمسيح إذا مات بلا سبب»[٨٠]، ويحكي لأهل غلاطية أنه : «قبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس، مغلقا علينا إلى الإيمان العتيد أن يعلن. إذ قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح، لكي نتبر بالإيمان، ولكن بعدما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب، لأنكم جميعا أبناء الله بالايمان بالمسيح يسوع، ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر ولا أنثى، لأنكم جميعا واحد في المسيح يسوع»[٨١].

فالناموس ـ إذن، كما يرى بولس ـ ينشيء غضبا لا نعمة، لأنه سبب المعصية، أما الذى ينقذنا من الغضب ويمحو عنا إثم التعدي، فهو : «ابنه من السماء الذى أقامه من الأموات، يسوع الذى ينقذنا من الغضب الآتي»[٨٢].

ولكن دعونا نرى تبرير بولس لفكرته في إبطال الناموس، يقول : «نحن نعلم أن كل ما يقوله الناموس، فهو يكلم به الذين في الناموس لكي يستد كل فم، ويصير كل العالم تحت قصاص من الله، لأنه بأعمال الناموس كل جسد لا يتبرر أمامه. لأن بالناموس معرفة الخطيّة. وأما الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس، بالإيمان بيسوع المسيح. إلى كلٍّ متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه، لإظهار بره من أجل الصلح عن الخطايا السالفة بإمهال الله لإظهار بره في الزمان الحاضر، ليكون بارا ويبرر من هو من الإيمان بيسوع. فأين الافتخار؟ أبناموس الأعمال؟ كلاّ بل بناموس الإيمان، إذن نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس[٨٣]. لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان، وبطل الوعد، لأن الناموس ينشيء غضبا، إذ حيث ليس ناموس ليس أيضا تعدّ، لهذا هو من الإيمان، كي يكون على سبيل النعمة، ليكون الوعد وطيدا لجميع النسل)[٨٤].

ويعني هذا القول بظاهره وباطنه: أن الناموس يحرك في الإنسان الرغبة في الخطأ الممنوع، وليس للناموس من فائدة إلاّ أنه سلاح العقاب ضد المخطيء، والشخص الذى يحيا تحت الناموس لا يرى نفسه إلاّ مجرما مدانا، ينتظر غضب الله

(٨٠) غلاطية : ٢١/٢
(٨١) غلاطية : ٢٢/٣ ـ ٢٩
(٨٢) سالونيكي : ١٠/١
(٨٣) رومية ١٧/٣ ـ ٢٨
(٨٤) رومية ١٤/٤ ـ ١٦

وأنه حيث الناموس تكون المعصية، إذ لا يستطيع أحد أن يكسر قانونا غير موجود، ولا يدان أحد بسبب أوامر لم تصدر إليه، فلو جعلنا الديانة ناموسية لصارت الحياة سلسلة متصلة من المعاصي التي تستجلب العقاب والغضب الإلهي، فالتبرير إذن تم بدم المسيح، وليس بالناموس.

وهكذا يضع بولس المسألة أمامنا على هذا النحو: إمّا العمل بالناموس فاللعنة والغضب الإلهي، أو الإيمان بالمسيح فالخلاص والنجاة.

ولكن حين يجعل بولس الناموس غضبا لا رحمة، ألا يكون غضبا صبه الله على رأس الإنسان دون مبرر؟ فالله هو الذى حرم على آدم الأكل من الشجرة، وكان التحريم حكما بالناموس، وإذا كان الناموس من الله، واللعنة بسبب الناموس، فمن أجل خطيئة من إذن صلب المسيح؟!

إن بولس إذا كان يعني هذه المهزلة فقد كان عليه ألّا يخفي قصده فيمن يستحق الخلاص؟ إن قوله يعني صراحة أن كل الذين آمنوا بالرسل والرسالات السابقة تحت الخطيئة، وأن كل من لم تبلغهم رسالة من السابقين واللاحقين من عباد الأصنام والكواكب والحيوانات، أفضل حالا وأسعد مآلا من المؤمنين بالأديان! وهذا لعمرى أعجب ما قرأت في تاريخ الأديان، وضعية كانت أم الهية! حيث أن كل دين يجعل تنفيذ أحكامه مقياسا للفضل والثواب والعافية والسعادة، وإهمالها سببا للشقاء وسوء المآل. أما بولس فيأتي بدين جديد يقلب الأشياء كما يقلب المنطق، فيجعل الناموس سببا للبلاء والشقاء واللعنة، وإهماله سببا للسعادة والهناء وحسن العاقبة والخلاص.

وربما الأغرب من قول بولس، أن نجد من يؤمن به، بل ويجتهد في تبرير هذا الخلط والعبث والسخرية بالله وبالانسان معا، فنرى عالم اللاهوت الدكتور وليم باركلي، - على الرغم من اعترافه بالصعوبات العقلية والدينية والأخلاقية في مذهب بولس - يحاول جاهدا تبرير هذا اللغو فيقول: (ليست هذه الفقرة سهلة على الفهم، لكنها مليئة بالمعاني العظيمة)!. ولكن ما هي تلك المعاني العظيمة التي يراها باركلي؟!

إن مشكلة الحياة الرئيسة هي كيف يصل الإنسان إلى علاقة سليمة مع الله؟ قالت الديانة اليهودية: يصل الإنسان إلى العلاقة السليمة مع الله عندما يحفظ وصاياه تماما، ويصحح موقفه من الله، وعندما يتمم مطالب الناموس، ولكن هذا

يعني استحالة وصول الإنسان إلى علاقة سليمة مع الله، لأنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يحفظ مطالب الناموس، فما هي فائدة الناموس إذن؟

إن فائدته أن يشعر الإنسان بخطئه، وعندما يعرف مطالب الناموس ويحاول تنفيذها يتحقق له أنه عاجز عن ذلك. الناموس إذن يكشف للإنسان عجزه وخطيئته، فهل يعني ذلك أن الإنسان إذن منفصل عن الله؟ كلاّ البتة، لأن الطريق إلى الله ليس طريق الناموس، بل طريق النعمة.

ربما كان الأمر الطبيعي أن نقول: إن الله البار يدين الإنسان الخاطيء كمجرم، ولكن الله في إنعامه المعجزي الذى لا يصدق يقبل الخاطيء لا كمجرم بل كابن يستحق الحب! فإذا كان أنبياء العهد القديم يجمعون على أن هناك قانونا أخلاقيا ينظم العالم، وهذا القانون هو غضب الله على العاصي، وكل من يكسر هذا القانون الأخلاقي يؤذي نفسه، فإننا إذا تركنا لهذا الناموس فإننا لابد هالكون، لأنه من هذا الذي يستطيع أن يلتزم بالناموس ولا يخطيء؟!.

ولكن في هذه المشكلة التي يواجهها الإنسان يتدخل الله بمحبته وينجّيه من الغضب المنصب على المخطيء، إن غضب الله عقاب للخطيئة، وهو جزء من ناموس العالم، ولكن محبة الله هي التي تحررنا من أسر هذا القانون، وتنقذنا من آثار عصياننا وخطايانا بفداء الله العظيم بابنه الوحيد من أجلنا.

والآن ما هو جوهر هذا كله؟ أين الفرق بين هذا وبين كلام الناموس القديم؟ الفرق أن الخلاص بدم المسيح يعني ما يقدر الله أن يفعله وقد فعله لأجل الإنسان. أمّا العمل بالناموس فيعني أن كل ما نفعله لا يمكن أن يكسبنا غفران الله ومحبته، وعلى هذا فإن الطريق إلى العلاقة السليمة مع الله ليس السعي المحموم من جانبنا، لكن الخضوع الثابت، وقبول محبة الله التي قدمها لنا المسيح.[٨٥]

هذا هو تبرير عالم اللاهوت الكبير الدكتور وليم باركلي لمقالة بولس في إبطال العمل بالناموس، والذي يتسم بسوفسطائية لا مثيل لها؟! والأكثر من ذلك مدعاة للدهشة والأسف أن تتحول هذه النحلة إلى معيار للقبول والرد للإعلانات الكتابية، فنجد عالما لاهوتيا كبيرا مثل مارتن لوثر الذي يعتبر زعيم مذهب في الإصلاح الديني، يرفض إدراج رسالة يعقوب ضمن رسائل العهد الجديد، لأنها تخالف فقط

---

(٨٥) تفسير العهد القديم ـ رومية ٧١ ـ ٧٤

تعليم بولس في الخلاص، بصرف النظر عن اتفاقها مع نصوص العهد القديم والأناجيل الأربعة، وهذه هي الفقرة من رسالة يعقوب، التي من أجلها رفضها لوثر، يقول يعقوب : (ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد: إن له إيمانا ولكن ليس له أعمال! هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟! إن كان أخ وأخت عريانين ومعتازين للقوت اليومي، فقال لهما أحدكم: امضيا بسلام استغنيا واشبعا، ولكن لم تعطوهم حاجات الجسد فما المنفعة؟!

هكذا الإيمان أيضا إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته. . . أنت تؤمن أن الله واحد، حسنا تفعل، والشياطين يؤمنون ويقشعرون!. . . ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال؟ ترون إذن أنه بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالايمان وحده. . . لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت، هكذا الإيمان بدون أعمال ميت.[٨٦].

هذه هي الفقرة التي يستشهد بها دائما الذين يدلّلون على وجود خلاف في الرأي بين يعقوب وبولس، فبولس يركز دائما على أن الإنسان يخلص بالإيمان وحده بدون أعمال، أما يعقوب فإنه يجعل العمل بالناموس شرطا للإيمان والخلاص، فيأتي مارتن لوثر ليحسم الخلاف، ويرفض قبول رسالة يعقوب باعتبار أنها تعزو التبرير إلى الأعمال، والاستشهاد بإبراهيم عليه السلام كالشخص الذي تبرر بالأعمال. وهذا في حد ذاته يعد دليلا لا يقبل لوثر فيه جدلا على أن الرسالة ليست ذات أصل رسولي، موضحا لنا المبدأ الذى امتحن به هذه الرسالة، ويمتحن به أيّ نص آخر مهما كان قائله فيقول : (إن رسالة يعقوب ترجع بنا إلى الناموس وأعماله، وإن كاتبها يأتي بشيء من هنا وهناك لدرجة أني أشك في أن يكون كاتب الرسالة هو أحد الأتقياء، فهو يسمي الناموس ناموس الحرية، (يعقوب ١/ ٢٥، ٢٠/ ١٢)، مع أن بولس يدعوه ناموس العبودية والغضب والموت والخطيئة. (غلاطية ٣/ ٢٣، رومية ٤/ ٥، ٧/ ١٠).

ثم يختم حديثه بهجوم قاسٍ ضد صاحب الرسالة فيقول : (وباختصار فإننا نجد كاتب الرسالة يريد أن يهاجمَ الذين يعتمدون على الإيمان بدون الأعمال، ولكن لا يمتلك القوة أو الفكر أو البلاغة التي تمكنه من القيام بتلك المهمة. إنه

(٨٦) يعقوب ٢/ ١٤ ـ ٢٦

يتحدى الكتب المقدسة، ولذلك نجده يعارض بولس . . ولهذا فإني أرفض أن أفسح له مجالا بين كتاب الوحي)[٨٧].

هذا هو الخلاص الذى قدمه بولس إلى العالم : إما العبودية والغضب بالناموس، وإمّا الحرية والنعمة بالإيمان بالمسيح المصلوب : (الذي أسلم من أجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا)[٨٨].

ولكن يبقى على بولس أن يجيب لنا على هذا التساؤل : أليس الإنجيل الذى بشر به بإلهام من المسيح كما يدّعي، يعتبر ناموسا جديدا؟

إن كان كذلك، فهو بحكم منطقه يجلب على من يؤمن به لعنة لا رحمة، وغضبا لا خلاصا. وإن كان غير ذلك، فالعلم أو الإيمان به ليس شرطا في الخلاص، ولا فرق إذن بين المسيحي وغير المسيحي بالنسبة لنعمة الله ورحمته، ويعني هذا أن مضمون إنجيل بولس ليس إلا هدما للعمل والإيمان معا، وربما كان هذا هو ما يهدف إليه بولس من دعوته، إذ أننا نجد في نصوصه ما يبرر هذا الاحتمال، وما يمكن أن نستخلصه من رسائله يعطينا الاعتقاد بأنه أميل إلى جعل الإيمان أمرا كماليا أو تحسينيا، وليس شرطا مسبقا في الخلاص، حيث يقول مثلا في رسالته إلى أهل رومية : (لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المعين لأجل الفّجار فبالأولى كثيرا ونحن متبررون الآن بدمه نخلص من الغضب، لأنه وإن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه فبالأولى كثيراً ونحن مصالحون نخلص بحياته[٨٩].
ويقول : (طوبي لمن لا يدين نفسه فيما يستحسنه)[٩٠].
ويقول : (لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيحيا الجميع، ولكن كل في رتبته)[٩١].
ويقول : (لأن الله أغلق على الجميع معا في العصيان لكي يرحم الجميع)[٩٢] وهنا

---

(٨٧) انظر تفسير العهد الجديد رسالة يعقوب وبطرس ص٢٣ ـ ٢٤ ـ وليم باركلي، ترجمة ادوارد وديع عبد المسيح ـ دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة.
(٨٨) رومية ٤/ ٢٥
(٨٩) ٥/٦ ـ ١٠
(٩٠) رومية ١٤/ ٢٢
(٩١) كورنتوس الأولى ١٥/ ٢٢ ـ ٢٣
(٩٢) رومية ١١/ ٣٢

نفهم قوله لأهل كورنثوس : (كونوا بلا عثرة لليهود ولليونانيين ولكنيسة الله، كما أنا أيضا أرضي الجميع في كل شيء)[٩٣]. وقوله : (كنت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس، لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس)[٩٤]، نفهم ذلك على أنه دعوة أو تبشير بدين إنساني على انقاض الأديان الإلهية.

والآن ماذا يعني ذلك كله؟

ان الخلاصة التي ننتهي اليها من إنجيل بولس أنه يقوم على مقولة عجيبة، مفادها: أن قصة الإنسان بدأت بخطيئة آدم، أو إن شئت سمّها لعنة الناموس التي لاحقت ذريته، وظلوا تحت الخطيئة والغضب غرباء عن الله، ومنفصلين عنه إلى أن تحنن الله عليهم بمحبته، فبذل إليهم ابنه الوحيد ليصيروا بدمه أبرارا متصالحين مع الله!

ولست أدرى كيف يمكن لأي منطق أن يصف إله بولس هذا الذى لم يهدأ غضبه، ولم تصف نفسه، ولم يرتفع سخطه ولعنته وغضبه، إلا حين آلمه الناس بسفك دم ابنه الوحيد؟!

هذا هو الخلاص الذى قدمه بولس لكسالى العالم والكادحين منهم على حد سواء، ليظل الكسالي مطمئنين بكسلهم، والكادحون في العزاء بشقائهم، أما الإباحيون فطوبي لهم بهذا الإنجيل الذى يبارك آثامهم، ويطرح كل القيود عنهم، ويغري غيرهم بالانفلات من عقال الدين والأخلاق، لأنه مكتوب عند بولس (كل الأشياء طاهرة)[٩٥] و (طوبي لمن لا يدين نفسه فيما يستحسنه، وأما الذى يرتاب فإن أكل يدان، لأن ذلك ليس من الإيمان، وكل ما ليس من الإيمان فهو خطيئة)[٩٦]!!

**الدعـامة الثانيـة** : تأليه الحكام وإعلان سيادتهم في التشريع والأخلاق، فكما أن المسيح واسطة الله لخلاص الإنسان من الخطيئة، فالامبراطورية الرومانية كما يراها

---

(٩٣) الرسالة الأولى ١٠/٣٢

(٩٤) كورنتوس الرسالة الأولى ٩/٢٠ ـ ٢١

(٩٥) رومية ١٤/٢٠

(٩٦) رومية ١٤/٢٢ ـ ٢٣

بولس واسطة الله لخلاص العالم من الفوضي، فهي آلة الله الذى يحفظ بها نظام العالم، بصرف النظر عن وعي الأباطرة والحكام بهذا الدور الذى أسنده الله إليهم طبقا لمشيئته العليا، علموا بذلك أم لم يعلموا.

وإذا كانت فكرة ذلك الدور الإلهي للحكام تعتبر من الركائز الهامة في إنجيل بولس، فإنها كانت الوسيلة التي ملأ بها الفراغ الذى أحدثه في دين عيسى عليه السلام، بإسقاط العمل بالناموس، فاكتفى من المسيح باسمه على الهيكل الذى أعده ديوانا ومقرا لسلطان القيصر، وتقديم الولاء والطاعة والدعاء له باسم المسيح.

يقول في رسالته إلى تيموثاوس: (فاطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس، لأجل الملوك، وجميع الذين هم في منصب، لكي تقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار)[97]، ويقول في رسالته إلى «تيطس»: (ذكرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين)[98]، وقد كان هذا الحق الإلهي الذى منحه بولس باسم المسيح للأباطرة والحكام من أهم العوامل في انتشار دعوته، فحين وجد فيها قسطنطين تدعيما لسلطانه، وتمكينا لسيطرة روما وسيادتها العالمية وصونا للإمبراطورية من التقسيم، أصدر مرسوم ميلانو ٣١٣م. الذى كان من آثاره إعلان المسيحية الدين الرسمي الوحيد في الإمبراطورية. والذى كان في الواقع إعلانا بانتصار بولس ودينه الجديد[99]، والذى يعلق عليه الدكتور «شارل جنيبير» قائلا: (والواقع أن المسيحين كانوا قد دفعوا ثمن الانتصار، دفعوه غاليا بحيث نستطيع القول في شيء كثير من الجزم: بأن مؤمني عصر الحواريين لم يكونوا لينظروا إلى هذا الانتصار لو قدر لهم ذلك إلا على أنه نكبة كبرى)[100].

وقد سبق القرطبي شارل في تأكيد هذه الملاحظة، حيث ذكر أن قسطنطين ابن هيلانة قيصر الروم اختلفت عليه رعاياه، وخشى انهيار ملكه، فرام حملهم على شريعة يجمع عليها رعيته، فأشار عليه أتباعه من خاصته أن يتعبد القوم بطلب دم ليكون أقوى لارتباطهم ووحدتهم، وحافزا لهم في حضرته، فعند ذلك عمد إلى من ينسب إلى دين المسيح، فوجدهم مختلفين، فاستخرج ما بقي من رسم الشريعة

(٩٧) ٢/١ - ٢

(٩٨) ٣/١

(٩٩) انظر المسيحية ونشأتها وتطورها ١٧٢

(١٠٠)السابق ص١٨٢

المنسوبة للمسيح، وجمع عليها وزراءه، فأثبت ما شاء منها، وتحكم فيها باختياره، حسب ما رآه موافقا له بالمصلوبية لتعبد قومه بطلب دم، والقول بترك الختان، لأنه شأن قومه، ثم أكد ذلك بمنام اختلقه وادعى أنه أوحي إليه فيه، وجمع رعاياه على رأس سبع سنين من مدة ملكه، وعرض عليهم صورة الصليب، وقال لهم: أخبرني من أتاني في النوم بأنه على هذا الرسم نغلب، فأعظمت ذلك العامة، واشتد حماسها وأوعز إلى كاهنة مشهورة عند العامة لذلك، وكان ذلك سببا في انتصاره على عدوه.[101].

وبعد النصر سألته الرعية تأويل ما رأى فأخبرهم أنه أوحي إليه في منامه أن الله هبط إلى الأرض في صورة إنسان فصلبه اليهود، وأمر أن يقود شعبه للثأر بدمه، فانقاد الناس له، واستقر ملكه، وشرع لهم هذه الشرائع التي بأيديهم اليوم أو أكثرها. ثم يضيف القرطبي أن الأمر تم لقسطنطين بمعاونة من اليهود الذين رشاهم بامتيازات كثيرة، ليؤكدوا للناس أن ما يقوله معروف لديهم ولا ينكرونه[102].

أيا ما كان الأمر فنصوص بولس كافية وحدها في بيان فكرته وتوضيح أهدافه.
يقول :
(لتخضع كل نفس للسلاطين الكائنة لأنه ليس سلطانا إلّا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله.. إذ هو خادم الله، فينتقم للغضب من الذى يفعل الشر، لذلك يلزم أن يخضع له، ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضا بسبب الضمير، فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا، اذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه، فأعطوا الجميع حقوقهم: الجزية لمن له الجزية، والجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام).[103].

أما الجزية التي يأمر بولس بأدائها، فقد كانت لا تترك للفقير شيئا، بل تزيده فقرا، وتجعل المال دولة بين الأغنياء، وما أبشع أن يجعلها بولس حكما إلهيا واجب

---

(١٠١)أوردت المصادر المسيحية ما أورده القرطبي في حيلة قسطنطين، وذكرت أن أكبر مناوئيه من خلفاء الإمبراطور جالير ٣١١م كان «فاكسانس» والذي كادت الدولة أن تتمزق بينهما.
انظر ما أورده شارل جنيبير في كتابه المسيحية ص١٧١ ـ ١٧٢
(١٠٢)الإعلام ص٢٤٤ ـ ٢٤٦
(١٠٣)رومية ١٣/ ١ ـ ٧

الأداء، فدفع الناس إلى اليأس من العدل الإلهي، وظنوه خرافة، وتحيُّن الفرص التي يطرحون عن كاهلهم كل ما يدينون به نحو هذا الإله الذي يحابي الأغنياء، والثورة ضد كل الأديان باعتبارها وسيلة يستغلها الطغاة في استغلال الشعوب. وهذا بعينه هو الهدف الذى وضعه بولس نصب عينيه، والغاية التي من أجلها كان تحوله وإعلاناته، وقد كان على الناس أن يدفعوا أنواعا عديدة من الجزية منها :

جزية الأرض : وتعني عشر ناتج الغلال، تؤدي بالغلال أو الفضة.
جزية الكروم وأشجار الفاكهة: وتعني خمس الثمار.
جزية الإيراد: وتعني عشر دخل الفرد.
وجزية الرأس: وتعني تحصيل الدولة عن كل شخص بلغ (١٤ إلى ٦٥) سنة مبلغا يقدره الحاكم كل عام.

وجزية الجباية: وتعني الضريبة التي تقدرها السلطات المحلية على البضائع واستخدام الطرق والجسور والكبارى، ودخول الأسواق والموانيء، والبيع والشراء، وحيازة حيوان أو عربة، ويترك تقديرها للسلطات المحلية، ثم يتركونها للجباة يحصلونها بطرقهم وتقديرهم الخاص.

ومن المدهش أن نرى عالم الأديان المسيحي «وليم باركلي»، يبرر لنا تعاليم بولس في طاعة الحكام وأداء الجزية، باعتبارات سياسية. فيرى أن بولس أراد بهذا الإعلان، الانقلاب إلى المبدأ اليهودي في أن الله وحده هو ملك اليهود، ولا يخضع اليهودى إلا له، فكانوا لذلك ثائرين محاربين للسلطة الرومانية على فلسطين طول الوقت.

فرفض بولس هذا المبدأ واعتبره مناقضا لما يقرره عن المبادىء المسيحية، فكتب هذا ليظهر أن لا علاقة للمسيحية بهذا الإرهاب اليهودي، ومعلنا أن المسيحية والمواطنة الصالحة أمران متلازمان.

وهذا التبرير من باركلي، إنما يعني في جوهره أن بولس كان رجلا برجماتيا، تقف وراء إعلاناته اعتبارات سياسية، ولم يكن يكتب بسلطان الوحي أو بإلهامات المسيح، ومع ذلك فإن باركلي يؤكد على أن إعلان بولس أصبح مبدأ مسيحيا راسخا، فقد كانت هذه عقيدة الكنيسة، حتى في أشد حالات اضطهاد الدولة الرومانية للمسيحية، حيث يعلن قادتها الكبار على لسان كبيرهم «ترتليان» الذي

يخاطب الرومانيين قائلا : إن المسيحي يتطلع إلى الإمبراطور باعتباره مدعوا من الله إلى وظيفته. . إن القيصر هو لنا أكثر مما هو لكم، لأن الهنا هو الذى عينه. وهكذا علمت الكنيسة دوما ضرورة الطاعة والصلاة للملوك والولاء والطاعة لهم، حتى أثناء حكم الطاغية نيرون.[١٠٤]

والمحصلة من هذا كله، أن بولس جعل الخلاص ـ والذى بشر به العالم ـ إنما يتم في الواقع ليس بدم المسيح ولا سلطانه، فبولس نفى أن يكون يسوع مشرعا، وإنما بسلطان الحكام وشريعتهم، ولا نشك أنه وهو يكرس سلطان الامبراطور والحكام في السيادة التشريعية وحقهم في الطاعة والولاء، إنما كان يرمي إلى وضع مبدأ الحق الإلهي للحكام، وإبطال دور الوحي في مجال التشريع والأخلاق.

---

(١٠٤)انظر تفسير العهد الجديد ـ رومية. ص١٩٤ ـ ١٩٥

# الخاتمـــة

والآن، وقد بلغنا نقطة النهاية في هذا البحث عن تحول بولس ومغزاه ونتائجه، والعوامل التي ساعدت على انتشار إنجيله العجيب، وجعلته أهم مرجع لدين جديد باسم المسيح، أود أن أختتم البحث باستذكار بعض النتائج، لما لها في نظري من أهميةنسبية :

أولا : كان قبول إنجيل بولس وانتشاره - رغم تهافته الديني والعقلي والأخلاقي، ورغم ما لقيه من مقاومة ورفض في عصره - واعتماده مصدرا رئيساً، إن لم يكن المصدر الوحيد في العقيدة المسيحية وطقوسها وشعائرها، كما هي عليه اليوم، إنما تم بسلطة المجامع الكنسية التي أعطته قانونيته بعد موت بولس بمدة طويلة، ولم تكن تلك المجامع في الواقع، إلا الناطق الرسمي باسم مصالح الأقوياء من السادة والمترفين في المجتمع.

ثانيا : لقد حقق بولس هدفه في إفراغ دعوة عيسى عليه السلام من محتواها الإلهي تماما، وأبقى على اسم المسيح شعارا، وضع تحته ما شاء من عقائد وتعاليم تكرس سيادة الطواغيت من البشر واستقلالهم بالتشريع لأنفسهم، وأطلق العنان للإباحية والحرية الفوضوية وسيادة الأقوى، ليتم له بشكل نهائي طمس كل أثر للدين الذي أتي به عيسى عليه السلام، مخليا الساحة لإقامة كنيسة دينه الجديد الذى يقوم على تأليه عيسى وابطال العمل بالناموس. هذا الدين الذي يمثل اليوم الطاقة المحركة للاستعمار الغربي، والمبرر الأخلاقي للاستغلال والاحتكارات العالمية.

ولا نجاوز الحقيقة، إن قلنا : إننا نعيش عصر «المسيحية البولستية» التي كان من نتائجها المباشرة، تلك الحروب الصليبية، ليست تلك التي قادها «ريتشارد قلب الأسد»، وانما تلك الحرب التي بدأها القائد الأعلى «بولس» باسم الصليب ضد الاسلام الذى أتى به موسى وعيسى وكل الأنبياء، ولا زال العالم يعيش هذا العصر حتى الآن، ولم تكن «الآيات الشيطانية» وموقف الغربيين منها، وردود الأفعال التي أثارتها، إلا الشاهد الذى يذكرنا أننا نعيش أوج هذا العصر.

ثالثا : إن الغاية القصوى لبولس وأوليائه، والدافع وراء أقوالهم وأفعالهم، إنما كان إقامة الحواجز والسدود ونثر الأشواك والعراقيل أمام الدين الجديد، دين محمد ﷺ الذي بشرت به التوراة والإنجيل، والذي لا نشك أن بولس كان على يقين

من أنه آت لا ريب فيه، وبوازع من حقده الأسود على هذا الدين، يسمي نبيه : «ابن الجارية»، إمعانا في تحقيره والتحذير من الاستماع إليه، في يأس يماثل يأس من يريد إطفاء الشمس بفمه، مستعطفا الأجيال التي فتل لها ونفث فيها من روحه وإلهاماته الشيطانية، أن يضعوا أصابعهم في آذانهم ولا يلتفتوا إلى الآتي إليهم بالناموس الأكبر، وألا يطيعوا له ويؤمنوا به، باسم الحرية التي منحهم إياها بدم المسيح المصلوب، وهذا هو إعلانه البائس الذي ضمنه تضرعاته اليائسة وأمانيه الكاذبة :

«لما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولودا تحت الناموس، ليفتدى الذين تحت الناموس، لننال التبني، إذا لست بعد عبدا بل ابنا، وإن كنت ابنا فوارث لله بالمسيح . .

أخاف عليكم أن أكون قد تعبت فيكم عبثا . . أتضرع إليكم أيها الأخوة كونوا كما أنا، لأني أنا أيضا كما أنتم. بل كملاك من الله قبلتموني كالمسيح يسوع، أفقد صرت إذاً عدوا لكم لأني أصدق لكم؟! يغارون لكم ليس حسنا بل يريدون أن يصدوكم لكي تغاروا لهم . .

يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضا إلى أن يتصور المسيح فيكم، أريد أن أكون حاضرا عندكم الآن وأغير صوتي لأني متحير فيكم!

قولوا لي : أنتم الذين تريدون أن تكونوا تحت الناموس، ألستم تسمعون الناموس؟!

فانه مكتوب : أنه كان لإبراهيم ابنان، واحد من الجارية، والآخر من الحرة، لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد، وأما الذى من الحرة فبالموعد، وكل ذلك رمز، لان هاتين هما العهدان : أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر، لأن هاجر جبل سينا في العربية، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة، فإنها مستعبدة مع بنيها، وأما أورشليم العليا التي هي أمنا جميعا فهي حرة، لأنه مكتوب افرحي أيتها العاقر التي لم تلد، اهتفي واصرخي أيتها التي لم تتمخض، فإن أولاد الموحشة أكثر من التي لها زوج، وأما نحن أيها الأخوة، فنظير إسحاق أولاد الموعد، ولكن كما كان حينئذ الذي ولد حسب الجسد يضطهد الذى حسب الروح، هكذا الآن أيضا.

لكن ماذا يقول الكتاب؟ : اطرد الجارية وابنها، لأنه لا يرث ابن الجارية مع

ابن الحرة، إذا أيها الأخوة لسنا أولاد جارية، بل أولاد الحرة، فاثبتوا إذا في الحرية التي قد حررنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضا بنير عبودية.

ها أنا بولس، أقول لكم : إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئا.. قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبرون بالناموس. سقطتم من النعمة، فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء بر، لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئا.. فإنكم إنما دعيتم للحرية..[١٠٥].

**وبعد ـ**

فاذا كانت هذه هي أهداف بولس وأمانيه ووسائله في تزييف التاريخ وطمس الحقائق، فهل تم له الانتصار؟

كلا، فان التاريخ لا يجرى بحسب أهواء البشر أو الهامات الشياطين، وإنما بحسب سنن الله في الكون والإنسان، وما الإنسان والتاريخ والتجارب، إلا الشواهد التي يقيمها الله على صدق هذه السنن، وما أصدق شهادة القرآن الكريم التي أوجزت في كلمات قليلة ولكنها معجزة في كمال دلالتها، كل ما حاولنا قوله وتفصيله في تحول بولس وأهدافه ونتائجه، في قوله تعالى :
**﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**[١٠٦].

(١٠٥)انظر غلاطية : الإصحاح ١٤، ١٥
(١٠٦) التوبة/ ٣٢ ـ ٣٣

# المراجــــع


القرآن الكريم

٢ ـ ابن الإنسان — دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة
٣ ـ الاعــلام — دار التراث العربي ـ القاهرة
٤ ـ إنجيل برنابا — دار القلم ـ الكويت
٥ ـ إظهار الحق — مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء
٦ ـ تاريخ بابل — منشورات عويدات ـ عمان
٧ ـ تفسير العهد الجديد (يعقوب وبطرس) — دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة
٨ ـ تفسير العهد الجديد (رومية) — دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة
٩ ـ تفسير العهد الجديد (الرؤية) — دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة
١٠ ـ تفسير العهد الجديد (أعمال الرسل) — دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة
١١ ـ حياة المسيح — دار الكتاب العربي ـ بيروت
١٢ ـ العلمانية — السلفية للنشر والتوزيع ـ الكويت
١٣ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل — مكتبة المثنى شرق بغداد
١٤ ـ الملل والنحل — الإنجلو المصرية ـ القاهرة
١٥ ـ المسيحية نشأتها وتطورها — المكتبة العصرية ـ بيروت
١٦ ـ الكتاب المقدس ـ أعمال الرسل — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
١٧ ـ الكتاب المقدس ـ إنجيل متى — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
١٨ ـ الكتاب المقدس ـ إنجيل مرقس — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
١٩ ـ الكتاب المقدس ـ رسالة كورنثوس الأولى — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٠ ـ الكتاب المقدس ـ رسالة كورنثوس الثانية — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢١ ـ الكتاب المقدس ـ رسالة غلاطية — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٢ ـ الكتاب المقدس ـ رسالة رومية — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٣ ـ الكتاب المقدس ـ رسالة كولوس — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٤ ـ الكتاب المقدس ـ رسالة سالونيكى — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٥ ـ الكتاب المقدس ـ رسالة يعقوب — دار الكتاب المقدس ـ القاهرة

٢٦ ـ الكتاب المقدس ـ سفر نحميا دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٧ ـ الكتاب المقدس ـ سفر عذرا دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٨ ـ الكتاب المقدس ـ سفر الرؤيا دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٢٩ ـ الكتاب المقدس ـ سفر دانيال دار الكتاب المقدس ـ القاهرة
٣٠ ـ المسيح في مفهوم معاصر السلفية للنشر والتوزيع ـ الكويت

## Verification of The Statements Concerning the Conversion of Paul, the Baptist

**By : Dr. Muhammad Hamdi Abdal'-al**

Christian fundamentatlists consider the conversion of John, the Baptist, who was extreme in his hatred of and treachery to Christ and his message, from Jew to one of the greatest messengers of Christianity, chosen by Christ to announce the Divinity of Jesus, the most significant event throughout the history of Christianity and the dividing line between two eras: The Genesis and regionalism era and the era of maturity and internationalism. They believed that Christ's crucifixion redeemed the sins of mankind.

The present researcher verifies the statements about Paul, the Baptist's conversion and the reasons behind this conversion and its effects on the principles and aims of Christianity. He goes on to conclude that present Christianity is a corruption of the divinely message made by Paul, the Baptist whose conversion was motivated by his desire to falsify Christianity, a Divinely revealed religion. Although, Pauls' teachings were in conflict of each other, he achieved his goal and succeeded in creating a religion different from original Divinely revealed Christianity. Paul's success in putting out the Light of Truth was due to religion, social, cultural and political factors well exploited by Paul by using the name of Christ himself in order to propogate his teachings which were consecrated to the domination of human tyrants in politics, legistlation and ethics. All this was done by a church which upholds the Divinity of Jesus, challenging God's Absoluteness. Around this new religion, that was founded by Paul the motive behind old and modern imperialism and the justifications for international monopolies, domination, opression and exploitation have arisen. The present crusade against the principles and the values of Musā and˘Issa and all prophets (PbuT) have been triggered by Paul's religion. 'The Satanic Verses' and the responses it elicited were not, but blazings of the fire set by Paul.

If this Paul wanted for the world Allah says "Fain would they extinguish Allah's light with their mouths, But Allah will not allow, but that His light should be perfected, even though the unbelievers may detest (it)". 9:32. and we Muslims should follow Allah's guidance embodied in His statement "Against them make ready your strength to the utmost of your power" 8:60.